قراءات ومشاهدات



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

قراءات ومشاهدات

تأليف
ثروت أباظة

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
الفجالة - القاهرة

٣

الأدب والبشرية

أقرأ فى هذه الأيام كتاب الخالدون مائة أعظمهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، والكتاب ترجمه إلى العربية الكاتب الكبير الأستاذ أنيس منصور ومؤلف الكتاب مايكل هارت عالم فلكى رياضى .

والكتاب عرض سريع لهؤلاء الخالدين يمكن أن يكون تعريفا لهم لمن لا يعرف عنهم شيئا . أما هؤلاء الذين يعرفون هذه الشخصيات سيجدون فى العجالة التى أوردها الكتاب تذكرة لهم بهؤلاء الاعلام والكتاب ممتع فى عرضه يهب للقارئ سعادة ويدفع عنه الملاله حتى أننا لنقرأ ما يعرضه الكتاب فنجد أنفسنا تواقين إلى المضى فيه ولا نجد عسرا فى عرضه للشخصيات التى قدمت اشياء خالدة فى تاريخ البشرية فى فروع بعيدة عن تخصصات القارئ .

وإنما أثار اهتمامى فى هذه الشخصيات ما كتبه المؤلف عن شكسبير من رأى يدل على أن الكاتب لا يدرى شيئا عن وظيفة الأدب ولا عن قيمته فى الحياة فهو رأى أقل ما يقال عنه أنه ساذج فطرى . عجبت كل العجب أن يصدر عن شخص له ما للمؤلف من ثقافة . ثم رددت تعجبى وقمعت الدهشة حين تذكرت أن المؤلف عالم فلكى ورياضى وأولئك قوم فى أغلبهم لا يدركون إلا المحسوسات ومن يدرك المحسوسات ولا يدرك غيرها إنسان جامد الحس ، قاصر النظر ، سطحى التفكير ، وليس هذا الذى أقوله عنهم ذماً وإنما هو وصف لا أظنهم يضيقون به فالذى يتكلم لغة الأرقام ولا يقبل إلا العلم البصرى لا يؤمن إلا بما يراه رأى عين لا تتعمق بصيرته إلى عالم الروح وإلى مكامن النفس وإلى دخائل الضمائر ومكنونها .

يقول الكاتب :

وعلى الرغم من عبقرية شكسبير وعظمته المؤكدة فإنه لم يظهر فى وقت مبكر من قائمة الخالدين . وقد جاء دوره متأخرا قليلا لا لأننى لا أقدّر عظمته وعبقريته ولكن لأننى أعتقد أن الأدباء والفنانين ليس لهم إلا أثر ضئيل على تاريخ الإنسانية .

واعتقاده هذا هو الذى أثارنى إلى هذا المقال . فالرجل إذن لا يفكر إلا تفكيرا محدودا . الدليل على ذلك أننا نجده يضع بين خالديه أسماء أفنت من الأرواح ما أفنت ودمرت من البشرية ما دمرت وأعتبر أن هؤلاء الخالدين فى رأيه أعظم اثرا على البشرية . فالذى يهدم البشرية عنده يتقدم على الأدباء والفنانين لأنه يعتقد أن الأدباء والفنانين ليس لهم إلا أثر ضئيل على تاريخ الإنسانية .

ولأنه عالم فلكى ورياضى لم يستطع أن يتخيل لحظة ماذا كان يُسمى تاريخ البشرية لو خلا من الأدباء والفنانين .

فلو أن الإحساس بالفن مسه من قريب أو بعيد لتخيل عالما لا أدب فيه ولا فن . ولو أنه أمعن النظر قليلا فى التاريخ لوجد الأدب هو الذى جعل الناس تعرف معنى الحرية ومعنى الشرف ومعنى الوفاء والحب الذى صعدت البشرية على هُداه إلى مراقى الانسانية .

ولو أن هذا الكاتب نفسه قرأ شكسبير وأحسن قراءته لوجد أن كثيرين ممن اعتبرهم خالدين إنما هم سفاحون أعاقوا البشرية . وإن كان هو قد ذكر ما صنعوه فى ظاهر الحياة وسطحها فان شكسبير قد غاص منهم إلى الأعماق وكشف خبيئة نفوسهم وجعل الفرد منهم الذى طغا وتجبر وعتا لا

يزيد في حقيقته عن مخبول أو مجنون . وأنه ما ارتكب ما ارتكب إلا لأنه نبا في تركيبه عن شرف الانسان وعما ينبغي لأسمى المخلوقات من رحمة واشفاق بالبشر وعطف على اخوته في الانسانية ولو أنه قرأ شكسبير والأدباء الآخرين في لغته وفي غير لغته لوجد أن الإمبراطور الأعظم والملك المتوج والرئيس المتأله الذى تهتف بإسمه الحشود عن حق أو ضلاله ليسوا عند الأديب الا أناسي وبشرا من البشر لا يزيدون عنهم في شئ . وربما كان أولئك الاباطرة والملوك والرؤساء أقل من الناس شأنا بلؤم الطبع . وخِسَّة المتجه ودناءة الهدف . وربما كانوا أحقر من الإنسان بالوسائل الوحشية التي يتبعونها وبالاحتيال وإخفاء الحقائق والبطش الوحشي . بطشا يبين في أعين أمثال المؤلف من الماديين مبررا وهو عند الأدباء الأمناء لا تبرير له مطلقا . فما يقبل الأديب أن يهان الانسان وما يقبل الأديب أن يستغل شخص ما مهما يكن ملكا أو إمبراطورا أو رئيسا سطوة منصبه ليهين الإنسانية متمثلة هذه الإنسانية في أى فرد مهما يكن مكانه في المجتمع وما يقبل الأديب أن يكون الفقر مذلة ولا أن يكون نوع العمل مهما يكن شأنه داعيا للاعتداء على كرامة الانسان أو على حقه في الحياة الحرة الشريفة .

ولو أن الكاتب قرأ شكسبير أو غيره من الأدباء لعرف أن الخصومة السياسية ورفض الرأى لا يجوز أن يسمح للامبراطور أو الملك أو الرئيس أن يقمع بالسلطان خصمه أو ينال بالسيف رضاه . فما الإمبراطور أو الملك أو الرئيس إلا فرد يخطئ كما يخطئ الناس ويصيب كما يصيبون .

ولو أنه قرأ شكسبير أو غيره من الأدباء لعرف أنهم يرون أن الشرف ليس مقصورا على طبقة دون طبقة ولا على ناس دون ناس وإنما هو مشاع بين كل الطبقات لا اختلاف بينهم ولا فارق ، فكما يجوز أن يكون ابن

الأمبراطور أو الملك أو الرئيس شريفا يجوز أيضا أن يكون وضيعا فى خلقه ساقط الكرامه يرتضى لنفسه مالا يرضاه إلا السفلة والأفاقون .

ويجوز أيضا أن يكون الفقير شريفا سامق النفس عالى الهمة ويجوز أيضا أن يكون ابن الوضيع وضيعا .

ولو كان قرأ لشكسبير أو لأحد من الأدباء لعرف أن المال الذى أصبح إلهاً فى النظرية المادية الشيوعية والذى هو الإله فى النظرية الرأسمالية ليس عند الكتاب فيما يكتبون إلا وسيلة وما هو بغاية . وأن الناس الذين يجعلون منه غاية هم أرخص خلق الله على الله وعلى البشر .

وإن الغنى لا يجعل الإنسان عظيما وإن الفقر لا يجعل الانسان حقيراً وإنما الإنسان عند الأديب عمله وليس ماله وخلقه وليس أخلاق ثيابه .

فالأدباء والكتاب هم صرخة البشرية فى وجه من يعادى البشرية على نور أقلامهم سار الخالدون الذين ذكرهم باستثناء سيدنا محمد ﷺ وعيسى – عليه السلام فى كتابه اللذين جاءهما الهدى من السماء .

وقد اختار الله لأعظم الخالدين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن يكون معجزته متمثلة فى الكلمة . ولكن العالم الفلكى الرياضى لا يستطيع أن يفهم هذا المعنى ولا أن يقدره . ومن أين له أن يعرف قدر القرآن الكريم وهو لا يتحدث لغته .

إذا كان المؤرخون هم الناقلون أحداث التاريخ إلى الأجيال فإن الكتاب هم الناقلون منائر القيم إلى كل الأزمان .

وإذا كان المؤرخ يثبت الأحداث فإن الأديب يبلور روح العصور إلى العصور .

وإذا كان هناك من يكفر بقدر الأديب فهو جاهل . أو غبي . وكلاهما شر من أخيه .

وإن كان هناك من يقول أن الأدباء بما يملكون من أقلام يعظمون قدر أنفسهم فإن هذا القائل عمي عن الحقيقة وانفصل عن البشر . لأن الناس هم الذين يقدرون الكتاب ويرفعونهم إلى مراتب الأنبياء والصديقين بما أناروا أزمان البشر منذ الأزل وإلى الأبد .

خواطر ونقد

كم من خاطرة راودتنى فى هذا الأسبوع وكم اردت أن أصيح بأقوام أن اسكتوا عن باطلكم حتى يتاح لنا أن نسكت عن حقنا ، فويل لزمان يعلو فيه صراخ الباطل ويتخافت فيه صوت الحق ، وويل لزمان يجعل المشرق غربا والغرب مشرقا ويجعل الهون مجدا والمجد هوانا على أعمدة السموق وكم قاسيت من نفسي وكم قسوت عليها أن تكف عن المضِىْ فى هذا السبيل الذى أصبحت أضيق بالكتابة فيه زهدا واجلالا للقراء أن أجعلهم يقرأون عن أمر هم به محيطون . وبعضهم اصطلى أواره وبعضهم به من أثاره جروح دامية لم تزل وما أحسب أن دماءها ستنضب . وكم كففت نفسى حتى لا اقول ما يعرفه جميع بنى آدم أن كرامة الإنسان وعرضه هما أثمن ما فى الإنسان وأن الإنسان هو سيد المخلوقات . ولاشىء فى العالم يعوض الإنسان عن سحق الآدمية فيه . ولا شيء فى العالم يعوض الشعب عن إذلال وطنه فى ساحات الشرف وامتهان عقيدته وهي طريقه إلى السماء .

أيها القلم فلتكف فوراً عن الاسترسال فإنى أعلم أننى إذا لم أقمعك بعزم ستمضى لاتقف .

هل بنا إلى ديوان شعر جديد ظهر لصديق قريب إلى نفسى قرابة أخ وحى ديوانه معى فان هذا لاشك أحب إليك من حديث تمقته وأين حلاوة الشعر من مرارة الأسى .

أما الديوان فهو « لا تسأليني » وأما الشاعر فهو العالم الأديب الأستاذ الدكتور عبد العزيز شرف . وما عبد العزيز بغريب عن قراء العربية عامة ولا عن قراء هذه الصفحة خاصة فهو من عمدها .

هذا الديوان فيض شعور فهو أشبه ما يكون بلحن جميل متناغم المقاطع عذب إذا قرأته انتشيت وإذا اعدت قراءته أعجبت — إقرأ معي :

كنت ألقاها صباحا فتلاقيني العشية
ثم تاسو لي جروحي بالأغاني العبقرية
آه من لفظ حبيبي في أغانيها الشجية
آه من جرح قديم . قد تولت هي رية
وتناءت ذات يوم . مثل أعراض التحية

كم هو جميل قوله مثل أعراض التحية ، ولا أحسب أن الدكتور عبد العزيز قد ذكر الأبيات الجميلة عن التحية حين ألهمته شاعريته هذا التعبير الشعري المشرق أما أنا فتذكرت تلك الأبيات القديمة .

بيضاء باكرها فصاغها بلباقة فادقها فاجلها
منعت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها
فدنا وقال لعلها معذورة من بعض رقبتها فقلت لعلها

وما اجمل الشعر الذي يذكرك بالشعر الجميل وهكذا استطاع عبد العزيز أن يجعل هذه الأبيات الرائعة تثب إلى خاطري ، ونعود إلى الديوان ونمضي بين بساتينه الفواحه العبير . ونقف عند نفثه .

ضاقت بي الدنيا كأني بخصمها . ياقلب واللقيا طوتها الانجم
صحبي وحبي والكرامة كلها مما اعاهد بالوفاء واكرم
ان الوفاء سجية للك هل ترى . تدع السجية للشكاة وتحجم

وأنا الذى قد عاقها . ومقنه مازال ينضح بالسلام ويبسم
آثرت بالحب ووددتهم ما بالهم ظلموا ولم أك أظلم

إن أجمل ما فى هذه الأبيات أنها تجمع بين البساطة الحديثه وبين الاصالة العربية . واعجب معى لأقوام يقيمون موازين للجمال من صنعهم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الشعر الجميل جميل فى كل عصر . وان أثره هو اثره منذ الجاهلية الأولى وحتى اليوم وإنه ليتسرب إلى النفس فيشيع فيها أسمى معانى الإنسانية وأشرفها حتى كان الإنسان يدف بجناحين ملكا فى السماء بعيداً عن الأرضية وكل ما فى البشر من شرور .

وقد أحسن الدكتور شرف صنعا بذلك الفصل الذى أضافه إلى الكتاب بعنوان « مع النصوص الشعرية » بقلم الدكتور كمال اسماعيل والفصل من أعمق البحوث التى قرأتها عن الشعر . وحين يتكلم الدكتور كمال عن عبد العزيز شرف يقول فى أول حديثه زعم أحد المثقفين أن الدكتور عبد العزيز شرف رومانسى وتساءل هل نحن بحاجة إلى مزيد من الرومانسيين . وأترك الدكتور كمال اسماعيل يجيب إجابة مفصحة وأتناول هذه القضية التى يثيرها بعض النقاد حين يصنفون الشعراء والكتاب عامة إلى رومانسيين ورمزيين وواقعيين فتلك من المضحكات المبكيات فالشاعر أو الكاتب لايعير هذه التصنيفات أى التفات . وانما هو يلتقى مع نفسه ويكتب فنه وليس يعنيه فى قليل أو كثير هذا التصنيف بل إننى أحسب أنه لايعنى أحدا .

واسمحوا لى الآن أن أقدم رواية قرأتها فما دمت قد أمسكت قلم الناقد وطفت به فى بحور الشعر فمن حق الرواية على أن أتناول ربوعها بالحديث وأنا منها وهى منى على وشيجه من القربى وعلى آصرّة من الحب لا تجيزان

لى أن أنساها إذا أنا ولجت من باب الناقدين . الرواية من أعظم ما قرأت فى السنوات الأخيرة وكاتبها الناقد العالم المتمكن العميق الدكتور نبيل راغب . وليس نبيل غريبا على الرواية فقد مارسها سنوات ناقدا وأستاذا دارسا ثم كتب بعد ذلك عدة روايات فاستطاع أن يفلت من أسوار النظريات إلى ساحات الفن المترامية الأطراف .

وروايته هذه التى قرأتها أخيراً هى « درب الشوك » وقد استطاع نبيل فيها أن يمزج فى براعة فائقة بين التاريخ القريب وبين الإبداع الفنى حتى لقد ظن كثيرون ممن قرأوها أنها وقعت وأنه إنما يروى وقائع ولايبدع فنا . ويوشك كثيرا من القراء أن يروا كل أسم من أسماء الرواية إلى اسم إنسان عرفه الشعب المصرى وذاع أمره فيه .

وأشهد أننى لم اقرأ عملا مشابها لرواية الدكتور نبيل راغب قبل هذا وأشهد أنه وفق غاية التوفيق فى هذا المزج الرائع بين التاريخ القريب وبين الفن الروائى .

وأما الرواية من الناحية الفنية فهى شائقة السرد ولايزال التشويق من أهم مقومات الرواية وإن رغمت أنوف .

وإننى أهنىء الأستاذ الدكتور نبيل بروايته هذه وأهنئه بلغته العربية الجميلة المتدفقه فى طبيعة وفى غير قسر ولا اصطناع وأرجو أن يضيف إلى مكتبة الرواية كثيرا من هذه الأعمال الرائعة .

لمحة عن ابن الرومى

كتب العرب فى جميع أغراض الشعر ، وكان شعر الهجاء من أهم الأغراض التى نظم فيها الشعراء المتقدمون ، وهذا أمر طبيعى لاغرابة فيه فما داموا قد كتبوا فى المديح وبالغوا فما بعجيب أن يكتبوا فى الهجاء ويبالغوا أيضا .

وقد كان العرب يخشون الهجاء حرصهم على المديح ، وبين الهجاء والمديح كان الشعراء يجدون قوتهم أو يجدون ثراءهم فى بعض الأحيان .

وقد جرى علماء التربية أن يهاجموا شعر الهجاء ويبغضوه للناشئة أرى أن علماء التربية فى هذا مخطئون فبقدر ما يمجد المديح الكرم والخلق الرفيع . يبغض الهجاء الخلق الدنئ ، ويجعل منه متجها مقيتا وشيئا لايجوز للشريف أن ينحو إليه ، وكما يمثل الوصف والغزل فناً رفيعا تجد الصور فيه تدعو إلى الإبهار والإعجاب .

واعتقد أن تمجيد الفضل لابد أن يسير معه فى نفس الطريق مهاجمة الشر والنيل منه ، وكما يبلور المديح الشيم الرفيعة ويُعلى من شأنها يقدم الهجاء صورا فنية رائعة للخلق الذميم والتصرف المقبوح .

والإنسان لايستطيع أن يحترم الفضل إلا إذا احتقر الخلق الزرى والفعل الذميم .

والقرآن الكريم فتح للناس أبواب الأمل فى الجنة اذا هم اتقوا وآمنوا وعملوا عملا صالحا ، وهدد بالويلات وبالنار تكوى الجنوب والجباه فهم فيها لا أحياء ولا أموات إذا كانوا من المفسدين الضالين الآثمين المعتدين .

وكما حبب القرآن الكريم إلينا الخير وحضَّ عليه بغض الينا العصيان والفسوق والنكول عن الطريق الأقوم وهددنا بالعذاب الذى لم يعرف البشر له مثيلا إذا نحن أطعنا أهواءنا ونكصنا عن الهدى والتوب والإنابة .

ولو شئت أن آتى بأمثلة من القرآن لاوشكت أن اذكر القرآن كله ، لاتكاد تجد سورة واحدة تخلو من آيات كريمة عديدة تهاجم الكفار والمعتدين والظالمين فهم قوم بور . وهم مسرفون . وهم قوم عُمْى عن الحق . وهم لايفقهون . وهم لايذكرون وهم صمٌّ عن النصح بكْم لاينطقون بما يعلمون إنه الحق . وهم غير ذلك وغير ذلك كثير .

فالله سبحانه من فوق سبع سماوات لعن المائلين عن الجادة السافلين عملا . الضالين صراطا ، فمن حق الشعراء بل من واجبهم أن يرسموا للناس الجمال والقبح والخير والشر . ومن حقنا نحن البشر أن نعجب بشعر الهجاء إعجابنا بأى لون آخر من ألوان الشعر .

وربما كان ابن الرومى أروع من قال شعرا فى الهجاء فى العربية وقد أبدع فيه إبداعا لا أحسب أن أحدا ضارعه فيه .

أذكر قوله :

وجهك ياعمرو فيه طول ... وفى وجوه الكلاب طول
والكلب وافٍ وفيك غدر ... ففيك عن قدره سفول
وقد يحامى عن المواشى ... وما تحامى ولاتصول
وأنت من أهل بيت سوء ... قصتهم قصة تطول
وجوههم للورى عظات ... لكن أقفاءهم طبول
مستفعلن فاعلن فعولن ... مستفعلن فاعلن فعول
بيت كمعناك ليس فيه ... معنى سوى أنه فضول

وأذكر بيته الرائع ولا أذكر معه بقية أبيات القصيدة ، فهذا البيت فى نظرى كفء لديوان بأكمله يقول :

ألا كريم جزاه الله صالحه   يهجوه عنى فبى عن عرضه كسل

وأذكر تلك الصورة السينمائية العجيبة التى يقول فيها :

رأيت الفضل مبتهجا   يناغى العيش والسمكا
فاسبل عينه لما   رآنى قادما وبكى
فلما أن حلفت له   بانى صائم ضحكا

كم يخسر الشعر العربى إذا نفينا عنه الهجاء . إن هذا النفى يحرمنا من لمحات فنية لو ترجمت إلى الغرب لسارت كل مسار أسمع ابن الرومى أيضا يقول :

يقتر عيسى على نفسه   وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره   تنفس من منخر واحد

كيف استطاعت هذه الخاطرة أن تثب إلى ذهن ذلك الشاعر العملاق إلا أن تكون العبقرية المتفردة .

ثم اسمع معى مايقول لبانى الدرج :

ياباني الدرج الذى   أولى به هدم الدرج
بئس البناء هى فى   المنازل والديار فلا تلج
لاسيما لأبى البنات   الناظرات من الفرج
وكذاك أنتم معشر   فى عود منبتكم عوج
فلو أن قمل رؤوسكم   ذات القرون إذا درج
شاء العروج إلى السماء   على قرونكم عرج

هذا الاكتمال الرائع فى الصورة لا يتأتى إلا لابن الرومى . كيف استطاع أن يصف أسرة بائى الدرج بالقذارة وبأنهم أصحاب قرون ثم يجمع بين الصفتين فى حركة دارمية واحدة ... عجيبة .

ولم يكن عجيبا أن يموت ابن الرومى حتف هجائه ، فقد هجا أحدهم وربما يكون واحد من هؤلاء الذين ذكرت شعره فيهم . وأرسل المهجو إليه يسترضيه ويدعوه إلى وليمة . وفى سذاجة الشعراء وجهلهم بالحياة يذهب ابن الرومى إلى الوليمة ويأكل وبعد أن يأكل يحس السم يسرى فى جسمه ويدرك أن الداعى دس له السم فى فطيرة دسمة .

ويقومْ ابن الرومى يبغى الانصراف دون أن يقول شيئا ولكن القدر يأبى له إلا أن يجعله هاجيا حيا وميتا . فيسأله صاحب الدار .

— إلى أين ؟

ويجيب ابن الرومى فى استسلام :

— إلى حيث أرسلتنى .

ويقول الداعى فى شماته :

— سلِّم لى على أبى

ويقول ابن الرومى آخر جملة عرفت عنه فى حياته

— آسف ليس طريقى إلى جهنم

وبعد فإنى أهدى هذه المقالة إلى الأدباء ليستمتعوا بما فيها من فن ابن الرومى وأهديها ايضا إلى من يلزم من غير الأدباء ؟

سر الكلمة

يلح على فى هذه الأيام شاعر المهجر العظيم إيليا أبو ماضى . وقد جعل هذه الأبيات مقدمة لديوانه الخالد الجداول . وإنى سأروى لك الأبيات من الذاكرة فلا تعنف بى إذا أبدلت لفظا يقول أبو ماضى

يا صديق أنه لولاك ما وقعت لحنـــا
كـــنت فى سرى لما كنت وحدى أتغنى
ألبس الـروض حلاه انـه يومـا سيجنى
ليس نورا كل نور مـر بـالأعين وسنى
قـد سكبت الخمـر كى نشرب فاشرب مطمئنا
واسق من شئت كريما لا تخف ان تستجنى
كلما أفـرغت كـأسى زدت فى خمرى دنا
فهى بـالأنفاق تبقى وهى بـالامساك تفنى

والقصيدة طويلة وهى تدور كلها حول هذا المعنى فى هذه العذوبة الشفافة وهذه الروح النورانية التى يتسم بها إيليا أبو ماضى الذى يجرى شعره فى ألفاظ غاية فى السهولة واليسر حتى ليحسب القارئ أنه يستطيع فى غير عناء ان يصنع صنيعه وينظم مثل شعره حتى إذا حاول وقفت دونه أهوال وأهوال ثم انثنى عما يحاول وهو عاجز مذهول .

فإيليا أبو ماضى لم يتبوأ مكانه فى الشعر العربى عن صدفة فالفن لايعرف الصدفة وإنما يعرف الموهبة ، ويعرف العبقرية والشهرة لا تأتى

للأدباء بالسعى اليها منهم وإنما هى التى تسعى إليهم صاغرة طائعة أو مرغمة لأنهم يفرضون أنفسهم على زمانهم وعلى ما يليهم من أزمان مابدعوا من فن رفيع لا يتأتى لغيرهم أن يجاريهم فيه .

ويمتاز إيليا أبو ماضى بطعمته الخاصة به فتجد لشعره عبيره الذى لايشاركه فيه أحد وانك إذا استعرضت عظماء الشعر العربى منذ الجاهلية حتى عصرنا الحديث تجد إن التاريخ لم يبق منهم إلا على هؤلاء الذين تفردوا بين جيلهم لا يماثل شعرهم شعر آخر والاستقصاء صعب ولكن مالنا لا نحاول عرض أمثله نصطنع منها نماذج سريعة لا تشكل دراسة مستوفية قدر ما تشكل شواهد على ما نذهب إليه ولننظر إلى المتنبى مثلا فنجد فنا رائعا فيه فحولة إذا احتاج موضوعه إلى فحولة أو نجد عذوبة إذا تخيا العذوبة فيقول والرواية من الذاكره أيضا :

الواهب الندس الهزيز العبقرى الألمعى الهبرزى الأروعا
متكشفا لعداته عن سطوة لو حك منكبا السماء لزعزعا

ويعذب حين يصف شعب بوان ويقول :

وأمواه يصل بها حصاها صليل الحلى فى أيدى الغوانى

ويصف خمائل العنب فيقول :

وسرت وقد حجبن الشمس عنى وجئن من الضياء بما كفانى
ونلقى الشمس منها فى ثيابى دنانيرا تفر من البنان

ويتفسلف فى منطق رائع صالح لكل زمان حتى اليوم حتى أننا إذا قلناه اليوم ونحن نرى الحروب الدائرة من حولنا لكان سخرية أى سخرية من بنى آدم :

يقول بشعب بوان حصانى اعن هذا يسار الى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصى وعلمكم مفارقة الجنان

وتترك المتنبى عملاق العصور الى قمة مثل ابى تمام فنجد اللغة الفصيحة العنيفة أحيانا والألفاظ الصعبة والسبك الوعر المضنى ولكن يتخلى عن هذا أحيانا ويميل عن هذه الألفاظ ليقول أبياته الشهيرة :

اقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء أياس
لا تذكروا ضربى له من دونه مثلا شردوا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

ويتلقف البحترى هذه الفحولة ويصوغها فاذا هى شعر رفيع الصياغة لا يلحق به لاحق من أبناء جيله ونسمعه يصف أسرة وقع الخلاف بين أبنائها بهذه الأبيات الرائعة .

شواجر ارماح تقطع دونها شواجر ارحام ملوم قطوعها
اذا احتربت يوما ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

وفى نفس الصياغة وفى ذكاء لماح وظرف نادر يبلغ المتوكل أن الفرس الذى أهداه إليه مات فى اليوم التالى فيقول :

أهديتنى أعجوبة هى فى العجائب نادرة
فرس كان هبوبة وشك الرياح الطائرة
فى ليلة قطع المسافة من هنه للاخرة

وتمر السنون وتتعاقب الأيام ويمر الشعر بيوم نحس ويوم سعود حتى يظهر البارودى واسماعيل صبرى بشارات لمولد شوقى وتبزغ إلى سماء الشعر شمس جديدة تلقى نورها بكل أنحاء العالم العربى حتى اليوم ونرى الشعراء

الأفذاذ فى إثارة وفى إثار حافظ وخليل ومطران ومحرم ونسيم وفى معيتهم بشارة الخورى وصحابته فى لبنان وبعدهم الجوهرى ومصطفى جمال الدين وبهجة الاثرى وصحبهم فى العراق وعزيز أباظه ورامى وناجى وعلى محمود طه وكل شعراء أبولو فى مصر ، لكل شاعر منهم رحيقه الخاص لايخطئه ذوق ولا تغيب نكهته على هواة الشعر ومرتادى خمائله وأفوافه .

هؤلاء الشعراء جميعا من ذكرتهم ومن لا تتسع لذكرهم مئات الصحائف فرضوا أنفسهم على العالم الأدبى بما أبدعوا ، ولكن من هذا الذى فرضهم أنهم أولئك الذى أحبوا شعرهم واستعذبوه وتغنوا به وأسمعوه أبناءهم وجيلهم والأجيال التى جاءت بعدهم . فالقراء اذن هم الذين يفرضون الكاتب على التاريخ .

وتسألنى لمن أسوق هذا الحديث وكأنك لا تدرى . فإنى إنما أسوقه إلى أبنائنا المتلهفين إلى الشهرة دون أن يعملوا فى يدهم القلم الذى يرغم الشهرة أن تسعى إليهم ، ماذا قرأ الشبان حتى يكتبوا ؟ إن الكتابة لا يمكن أن تبدأ إلا بعد قراءة طويلة متأنية ودراسة وتذوق حتى يذوب الأديب فى الأدب ويصبح جزءاً منه لا يتصور الحياة بغيره . فان الكلمة لاتجرى على قلم إنسان يريد أن يتخذ منها حلية فى حجرة أو تحفة يتباهى باقتنائها .

لن يكون كاتبا من لا يصل إلى سر الكلمة .. وسر الكلمة لا يتأتى إلا لمن يصادقها فى إخلاص يبلغ مرتبة التفانى فإن الكلمة لا تلقى سرها لعابرى السبيل أو لمن يريدونها أن تكون مجرد زهرة فى أصيص تذبل بعد حين وتلقى فى الطريق إنما الكلمة دوحة غناء باقية على الزمان أصولها فى أعماق أرض الفن وذؤابتها فى سمائه ؟

أم لأمر فيك تجديد

يطيب لى ونحن فى أعقاب العيد أن أتذاكر هذه الأبيات لايليا أبو ماضى فى قصيدته هدايا العيد .

خرج الناس يشترون هدايا العيد للأصدقاء والأحباب
فتمنيت لو تساعفنى الدنيا فأقضى فى العيد بعض رغابى
كنت أهدى إذن من الصبر أرطالا للمنشئين والكتاب
وإلى كل تاجر حرم التوفيق زقين من عصير الكذاب
وإلى معشر الكسالى قصورا من لجين وعسجد فى السحاب
علنى أستريح منهم فقد صاروا كظلى فى جيئتى وذهابى
وإلى ذى الغنى الذى يكتز المال ازدياد الذى به من عذاب
كلما عد ماله مطمئنا أبصر الفقر واقفا بالباب
وإلى الصاحب المراوغ وجها أسوداً حالكا كوجه الغراب
إذا لاح فرت الناس ذعرا من طريق المنافق الكذاب
وإلى من يسبنى فى غيابى شرفا كى يصونه من سبابى
وإلى حاسدى عمرا طويلا ليدوم الأسى بهم من مابى

وفى القصيدة أبيات أخرى اكتفيت منها بهذه الأبيات . وشعر ايليا بطبيعته لايحتاج إلى تعليق فهو مع اشراقة الديباجة فيه وسلاستها وعذوبتها واضح بيّن حتى أننى أحسب أن أى شرح له أو تعليق عليه يفسد جماله ويغض من سموقه . فالشاعر المهجرى العظيم قادر دائما على أن يقدم إليك المعنى كاملا عميقا فى غير حاجة إلى مزيد من تبيان وفى غير حاجة أيضا إلى تعميق .

ولو كان الشاعر الكبير حيا ضمن نصبره يقدمه إلى الأدباء والشعراء وحاول أن يقدمه إلى أسود أفغانستان وهي تحارب فى إصرار وجبروت ثانى قوة كبرى فى العالم والتاريخ . والدولة الغازية التى يدعى أشياعها أنهم يبحثون عن السلام للإنسان وعن الابتسامة يقدمونها إلى شفاه الأطفال تنقض انقضاض الظلم المؤيد بالمال والسلاح على أفغانستان التى لا تملك شيئا إلا الإيمان بالله الواحد الأحد لا ترتد عن إيمانها إلا بالشهادة عالمة أن فى هذه الشهادة أسمى ما يتمناه المؤمنون . وتسوخ أقدام العدوان فى بحار من دماء والضحايا منهم بيد المؤمنين اكثر من الضحايا فى الشعب المؤمن الذين يقتلهم العدوان بآخر ما وصل إليه العصر البغيض من آلات سفك الدماء والقضاء على أرواح الأبرياء .

والظلم بقدر ما هو واقع على افغانستان المؤمنة الشامخة بإيمانها واقع أيضا على أفراد الجيش الغازى فهم مساقون إلى هذه الحرب لايدرون أين يحاربون ولا لماذا ولايدرون لماذا يقتلون هذا الشعب ولا لماذا يقتلهم هذا الشعب فجميع أفراد الجيش الغازى ينطبق عليه بيت شوقى امير الشعراء .

كالشاة تساق إلى القتل ... بيد جبار ذى بطش

ولو كان إيليا أبو ماضى حيا لأهدى بعض العقل إلى إيران التى تصر على الحرب مع دولة مسلمة تريد أن تكف عن الحرب وتقدم فى كل يوم عروضا للصلح ولكن ايران المسلمة التى يحكمها لأول مرة فى تاريخها عالم مسلم ترفض السلام والصلح وكل ما يعرض عليه ومهما تكن العراق هى البادئة بالحرب أفلا يكفى الزعيم الايرانى العالم المسلم أن يكون العراق نفسها هى البادئة بالسلام . أين الاسلام اذن وليس بين أسماء الأديان اسم

يحوى من حروف السلام ما يحويه أسم الإسلام ولكن الاسلام عندهم اسم على غير مسمى وكلام بغير عمل وشقشقة ولا تنفيذ .

ولو كان ايليا حيا لاهدى بعض الحياء لذلك السادر المخبول فى الجماهيرية وهو يتقافز فعل القردة فى كل ميدان حرب أو شقاق أو حتى معركة ايد وعصى .

ولو كان إيليا أبو ماضى حيا لأهدى سوريا بعض الرحمة تخفف بها الوطء على شعبها أو على شعب لبنان الذى قاسى من البلاء سنوات طوالا عجافا حمراء داكنا لونها قطعت أوصاله وأوهنت قواه فأصبح وهو يوشك أن يكون بلا كيان ليس يدرى أيواجه الانقسامات والصراعات فى داخله أم يواجه العدو الصهيونى الذى يريد أن يحطم كل العرب أم يواجه الأخ الشقيق من سوريا وهو يحتل أرضه ويرفض له السلام ويأبى أن يجلو عن لبنان التى دخلها بدعوى حمايتها فأصبحت وهى أشد ما تكون حاجة إلى من يحميها من حاميها ويرد عنها عدوان شقيقتها سوريا التى أمست شرا عليه من صهيون ودولة اسرائيل وأذكر البيت العربى الشهير .

وظلم ذوى القربى اشد مرارة   على النفس من وقع الحسام المهند

رحمك الله إيليا ابو ماضى وقد فعل وأكرمك أن ترى هذا البلاء الذى نعانيه فنصيح جميعا مع المتنبى عيد بأية حال عدت ياعيد .

لايصلح العلم فوضى ! !

قرأت فى مجلة أكتوبر مقالة لأخى الكاتب الكبير أنيس منصور أجد من الأمانة أن أشيد بها وأن أضم صوتى إلى صوته فيا ينادى به وحسبنا نحن الكتاب أن نصرخ فما لنا فى الحياة الا هذا القلم نصرخ به ونستصرخ المسئولين إلى ما نراه حقا فقد تصدى أنيس منصور إلى مشكلة التعليم وما يواجهه أبناء مصر من كارثة بسببه .

فالدولة تقدم العلم مجانا لكل أبنائها . وهذا فى ذاته واجب عليها ينبغى أن نتصدى له ولكننا ما عرفنا واجبا لايلازمه حق إلا فى مصر وقديما قال علماء القانون والمجتمع أن الحق والواجب كوجهى العملة فإذا تصورنا انتزاع وجه من وجهى العملة أمكننا تصور وجود واجب لايلازمه حق .

فالدولة حين تتيح للتلميذ أن يتعلم على نفقتها أصبح حتما على التلميذ أن ينجح لأنه حين يرسب إنما ينتهب حق النجباء من التلاميذ الذين لايرسبون ولهذا يتعين على الدولة أن يكون التعليم فى مدارسها مجانيا مادام التلميذ ينجح أما اذا رسب فعليه أن يدفع مصاريف تعليمه كاملة .

فإذا تكرر رسوبه تحتم أن تحوله الدولة من التعليم العام إلى التعليم المهنى .

كذلك ينبغى أن تنظر الدولة فى شأن التلاميذ الضعاف فى الشهادات العامة وتحول الذين لايحصلون على مجموع معين فى الشهادة الاعدادية الى التعليم المهنى فقد أصبحنا فى حاجة شديدة إلى متخرجين فى هذا النوع من التعليم . والدولة بهذا لاتصادر مستقبل التلاميذ وانما هى تجعل التلميذ يسير فى الطريق الأمثل له وتبعد به عن طريق أغلب الأمر أنه لن يحقق فيه

نجاحا .. ومن الواجب أننا نسمع بعض الناس يقولون أن التفوق فى التعليم لايدل على النجابة . وقد يخذل المستقبل تلميذا كان فى طليعة إخوانه فى فصول الدراسة . وقد تتفتح الآفاق أمام تلاميذ لم يكونوا من المتقدمين فى دراستهم .

ويقول أمير الشعراء شوقى :

وكم منجب فى تلقى الدروس   تلقى الحياة فلم ينجب

ويقول آخرون أن العقاد وهو العقاد لم يحصل إلا على الشهادة الابتدائية وأن تشرشل لم يكن نابغا فى الدراسة وكذلك شأن كثيرين من العلماء وكبار الساسة .

ولكن هؤلاء جميعا استثناء من القاعدة العامة . واذا كان غير الناجبين ذوى طموح فعليهم أن يدفعوا مصاريف دراستهم وعليهم أيضا أن يثقفوا أنفسهم كما ثقف العقاد وتشرشل وجميع النابغين الذين لم يكونوا نجباء فى دراستهم أنفسهم .

ويقول أنيس فى مقالته إن تعيين الدولة لجميع الخريجين يجعل الشباب لين العريكة خائرا فى مواجهة الحياة يرضى منها بالأدنى ولايتطلع إلى الأسمى ويكتفى بالبخس من العيش ولايتطلع إلى الأرفع .

والحق إن تعيين جميع الخريجين أمر يرهق الدولة إرهاقا لاتطيقه أية دولة فى العالم وليس الارهاق متأتيا من مرتبات الخريجين وإنما هو يتمثل أسوأ ما يتمثل فى تراكم الأعداد الضخمة على أعمال الدولة . فالعمل الذى ينبغى أن يقوم به موظف واحد نجد الدولة ترصد له مائة موظف وتصبح المسئولية شائعة بينهم وحين تشيع المسئولية تضيع ولانجد الدولة من تسائله عنها .

ولست أدرى أى بأس فى أن تقدم الدولة مرتبا لكل خريج مادام بغير عمل حتى إذا وجد عملا فى أى مرفق انقطع عنه هذا المرتب . ويكون بذلك شأننا شأن أعظم الدول الديموقراطية وأغناها أيضا .. تلك التى تعطى مرتبات فى حالة البطالة ولكن أغنى الدول هذه لاتطيق مواردها تعيين كل المتخرجين فى مرافق الحكومة لأنها تعلم علم يقين أنها إذا فعلت ستصاب الدولة بالشلل الكامل الذى نواجهه نحن .

وأخرى

لماذا لايدفع القادرون مصاريف أولادهم وليكن ذلك باختيارهم فالله وحده هو المطلع على أحوال الناس المالية . فقد يبدو المرء ثريا متعففا ورزقه مقدور عليه لا سعة فيها أوقد يبدو آخر فقيرا معدما وهو مكتنز يجمع المال بشر الوسائل ويحميه عن الانفاق ببذل ماء الوجه ... وسفح الكرامة وإهدار الاحترام .. ولعل من أجمل الأبيات التى سمعتها فى هذا الشأن من الحياة قول شاعر قديم .

وقائلة ما بال لونك حائلا   فقلت لها خل الأمور كما هيا
إذا قلت عن زهد تمدحت خلتى   وإن قلت عن فقر شكوت إلهيا

فلا عجب إذن أن يكون الإنسان ذا كرامة ويخفى فقرا .. أوذا وقاحة ويخفى غنى والله وحده العليم بدخائل الناس وحقائق يسرهم وعسرهم .

فليكن إذن التعليم المجانى اختياريا ولتقدر المدارس مصاريف يدفعها من يشاء ويعفى منها من يرغب فى ذلك .

والناس معادن وليس كل الناس سفلة يضنون بالمال على دولتهم ويتهبون منها مصاريف تعليم أولادهم وهم عليها قادرون وكم رأينا أناسا

يطحنهم الفقر ويؤدون الأمانات إلى أهلها وأعلم أيضا أن هناك أقواما يغصون بالغنى ويشرقون بالمال ويختلسون الأموال من كل مظنة لها ...

فالغنى والفقر إنما يتمثلان فى نفس الإنسان وليس فى جيبه ولا فى حسابات البنوك .

يفتقد البدر

إننا فى هذه الأيام نحتفل بذكرى الشاعر الأول فى الأدب العربى أحمد شوقى ، وقد لقى شوقى من الهجوم فى حياته وبعد وفاته ما يضيق به أولو الصبر والاناة . وكان رحمه الله فيما سمعت يضيق بالنقد ولكن شيئا لم يستطع أن يرده عن الابداع الشعرى الذى جلس به منفردا على إمارة الشعر فى عصره وفيما سبقه من عصور وأحسب أنه سيظل متسنما هذه القمة إلى أجيال كثيرة قادمة ، ولا شك أنه سيتعرض فى قابل الأيام لما تعرض فى ماضيها من تطاول .

ولعل أصدق دليل على توقعى ما حدث فى التلفزيون المصرى منذ قريب حين تصدر التليفزيون ناقد مصرى الجنسية والمولد ولا أقول الاسم ، أجنبى الثقافة والإنتماء ولا أقول الهوى ، وحذر أن نعود إلى عصر شوقى وعزيز أباظه فى المسرحية الشعرية ، وكأنى به وجد من يستطيع البلوغ إلى هذه القمة ولم يبق الا أن يحذره من بلوغها .

ولكن ما شأن الأجانب الغربيين بالشعر العربى ، إن هذا الناقد يحرص على هدم الأدب العربى الخالص منذ أول حياته يتسلق ما يجد ليبلغ الشهرة ولكنه اخطأ السلم فتسلق سلّما انجليزيا تارة وفرنسيا تارة وشيوعيا دائما فلا هو اصبح اديبا عربيا فى المكانة الجديرة بسنه ولا هو أصبح أديبا فرنسيا ولا هو أصبح أديبا انجليزيا وإن ظل على الدوام شيوعيا وحربا على اللغة العربية وهو يحربه لها يحارب معنى أكبر لن أصرح به مادام هو مصرا أن يتكتمه تكتما فاشلا فما من أحد يعرفه أو يقرأ له إلا وهو يعرف ما يضمر وما يحاول أن يستره ، واللهمن فوق عباده غالب على أمره .

وقالوا عن شوقى شاعر الأمير وقال هو عن نفسه :

شاعـــــر الأمير ومـــا بـالقـليــل ذا اللقب

ولكن شاعر الأمير هذا لم يسكت يوما على باطل ولا بارك يوما رأيا لايدين به بل هو يصرخ فى قصيدته الرائعة « الهلال »

سنون تمر ودهر يعيد لعمر ما فى الليالى جديد
أضاء لآدم هذا الهلال فكيف تقول الهلال الوليد
على صفحتيه حديث القرى وأيام عاد ودنيا ثمود
وطيبة حافلة بالملوك وطيبة مقفرة بالصعيد
نعد عليه الزمان القريب ونحصى عليه الزمان البعيد
يقولون يا عام قد عدت لى فيا ليت شعرى بماذا تعود
لقد كنت لى أمس ما لم أرد فهل أنت لى اليوم مالا أريد
ظمئت ومثلى يرى أحق كأنى حسين ودهرى يزيد
ومن صاحب الدهر صحبى له شكا فى الثلاثين شكوى لبيد
وإنى نواس هذا الزمان فمن للزمان باذن الرشيد

فهو اذن يهاجم الأمير ويرميه بأنه لا يقدّر شاعره حق قدره . وهذا الشاعر الذى أطلقوا عليه شاعر الأمير ثم نصّبه شعراء العروبة جميعا أمير الشعراء نال هذين اللقبين تمجيدا وفخرا وكلا اللقبين كان يتمنى شعراء جيله أن يفوزوا بواحد منهما ولكن سعيهم أكدى وصدق عليهم قول شوقى :

قسما لو قدروا ما احتشموا لا يعف الناس إلا عاجزين

ذكرت شوقى اليوم واسرائيل تعربد فى العالم العربى كعاهرة ساقطة النقاب معدومة الحياء . وذكرت شوقى وأنا أرى أمريكا أكبر دولة فى العالم

تبارك فجور اسرائيل وتحطيمها لكل سلام مرتقب مع العرب . وتولت القلب حسرة لاعجة بل حسرات . اسرائيل تهزأ بكل الأعراف الدولية والخلقية وتصنع ما لا تصنعه دولة بل وما لا يجوز أن تصنعه الجماعات الفلسطينية ولكن إذا غفرنا للمظلوم المشرد أن يضرب ضربات رعناء غير واعية فكيف نسيغ أن تصنع دولة لها وزارة وكنيست ورأى عام أن تفعل فعل الجماعات التي شردتها هي .

ونرى أمريكا التي ينبغي أن تكون في مكان الدولة الكبرى التي تردع مخلوقتها اسرائيل اذا هي سكرت وتخدرت وعربدت تبارك ذلك الهوس الدموى الآثم المجرم الذى تقوم به اسرائيل وأرى هذا وأنظر الى العرب .

فأرى سوريا تصنع في شقيقتها لبنان ما تصنعه اسرائيل في أعدائها من الفدائيين وأرى سوريا أيضا تنقض انقضاض الوحوش المسعورة على الفدائيين أيضا وكأنهم ماكفاهم ان استلبت منهم اسرائيل ارضهم وأمنهم ومأواهم وكأنهم ما كفاهم تلك الأعمال الإجرامية التي تصبها عليهم اسرائيل في غير خجل أو تفكير في الرأى العام العالمي . كان سوريا ما كفاها هذا جميعا فهي تطحن الفدائيين طحنا أخرقا مأفونا حتى لا يسعنا إلا أن نقطع بأنها على اتفاق تام مع اسرائيل ومالنا إلا نظن هذا والعالم كله يتكلم عن بيع سوريا أرضها في الجولان لدولة اسرائيل التي ضمتها إلى أقاليمها .

أرى هذا وأرى العرب وما زال كل منهم في شأن يغنيه . الدول صاحبة الثراء والقدرة المالية الباذخة صامته ساكنه مكتفية أنها قطعت علاقتها بمصر وكأن مصر هى التي تعربد في تونس ولبنان ولا تقطع الدول العربية علاقتها بسوريا التي حاربت الفدائيين بأشد مما تحاربهم اسرائيل ولكنها دول تخشى التخريب السورى وتعلم أن مصر محكومة اليوم حكما

ديمقراطيا وأنها سلام حيث حلت أمن حيث ذهبت وأنها من قبل ومن بعد تنظر إلى كل الدول العربية الأخرى نظرتها إلى الإخوة الصغار وشأن الكبير أن يعفو ويتسامح ويعف ويتعالى فى كبرياء ويصدق علينا قول الشاعر العربى القديم :

وإن الذى بينى وبين بنى أبى   وبين بنى عمى لمختلف جدا
إذا أكلوا لحمى وفرت لحومهم   وإن طلبوا هدمى بنيت لهم مجدا
يعيرنى بالدين قومى وإنما   ديونى فى أشياء تكسبهم حمدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم   فليس كبير القوم من يحمل الحقد

اذكر هذا جميعه فى ذكرى مولد شوقى وفى ذكرى وفاته فاليومان متوافقان ، وأتساءل هل كان شعر شوقى يستطيع اليوم أن يوقظ فى العرب عروبتهم ويردهم الى ضمائر هم ويعيدهم إلى الطريق ، فيقول لهم ما قاله فى رثاء الخلافة . لأ حسب انه كان سيسمى القصيدة فى رثاء العروبة فهى اليوم هى القتيل :

عادت أغانى العرس رجع نواح   ونعيت بين معالم الأفراح
كفنت فى ليل الزفاف بثوبه   ودفنت عند تبلج الأصباح
شيعت من هلع بعبرة ضاحك   فى كل ناحية وسكرة صاح
ضجت عليك مآذن ومنابر   وبكت عليك ممالك ونواح
الهند والهة ومصر حزينة   تبكى عليك بمدمع سحاح
والشام تسأل والعراق وفارس   أمحا من الأرض العروبة ماح

وطبعا أبدلت كلمة الخلافة بكلمة العروبة وأمضى فى قصيدة شوقى :

يا للرجال لحرة مؤودة   قتلت بغير جريرة وجناح

هتكوا بأيديهم ملاءة فخرهم موشية بمواهب الفتاح
نزعوا عن الأعناق خير قلادة ونضوا عن الأعطاف خير وشاح
وعلاقة فصمت عرى أسبابها كانت أبر علائق الأرواح

كان شوقي خليقا أن يقول مثل هذا وأكثر حين يرى حال العرب اليوم ولكن .. كم تخادع نفسها النفس ، أو سيلبون دعوة شوقي هيهات ان كانوا عرفوا عن دعوة الله لهم بالوحدة أيلبون دعوة إنسان مهما يكن أمير الشعراء .

اللهم أنك قد فرضت علينا الحج ليكون للمسلمين وحدة ورباطا واجتماعا فاللهم فشأنك اليوم مع عبادك الذين صاروا فرقا وشيعا وأحزابا وليس لهم من دينك عاصم ولا من نفوسهم عصام وحسبنا أنت فأنت أنت وحدك نعم الوكيل .

السيف والذهب

قد يطيب للحياة بين الحين والآخر أن تؤلف قصة فنية تلتزم فيها بجميع قواعد القصة التي وضعها النقاد وهذه القصص الفنية نادرة في مجموعات الحياة القصصية ، فأغلب قصصها بعيدة عن المعقولية التي يلتزم بها القصاصون فهي لايعنيها في شيء إقناع المطلع على ما تكتب ولايعنيها أيضا رضاؤه أو عدم رضائه . ولعل شوقي هو أعظم من وصف قصص الحياة — الضاربة في قصيدته الخالدة مصاير الأيام . وأن الحياة حين تؤلف قصصها تبدو لبني الأرض كأنها ظالمة لأن الإنسان لايعرف إلا عدالة ضيقة الحدود ضئيلة المعالم . أما عدالة السماء فتشمل الكون كله وهو سبحانه وحده يعلم وليس غيره يعلم ما هو خير لعبده فهو يطبق عدالته تقدست اسماؤه بالصورة التي تمكن العدالة أن تتاح لجميع عباده وهو حين يطبقها يشفعها بكرمه ولطفه ورحمته التي كتبها على نفسه .

فشوقي حين كتب أبياته هذه الخالدة التي سأرويها لك سجل ما تجرى عليه الحياة في ظاهر أمرها لأن الله وحده هو الذي يملك ما وراء أحداث الأرض من عدالة تشمل الجميع وقد أعجبت بإحصاء قامت به سيدة أمريكية أثبتت به أن الناس جميعا يتمتعون بأنصبة متساوية من السعادة تقابلها أنصبة متساوية من الشقاء فكل إنسان حظى بقدر من السعادة يعدل ماأصاب الآخرين وناله قدر من الشقاء نال مثيله الآخرون . والله وحده يعلم مداخل السعادة والشقاء في نفوس أبناء البشرية . فقد يقع الحدث الهين ولكن الشقاء به في نفس من وقع عليه يكون فادحا . وقد ينال إنسان ما خيرا ضئيل الشأن ولكن سعادته به تفوق كل سعادات الدنيا .

يقول شوقى :

فطيع يزجيه راع من الدهر ليس بلين ولا صلب
أهابت هراوته بالرفاق ونادت على الحيد الهرب
وصرف قطعانه فاستبد ولم يخش شيئا ولم يرهب
أراد لمن شاء رعى الجديب وأنزل من شاء المخصب
وروى على ريها الناهلات ورد الظماء فلم تشرب
وألقى رؤوسا إلى الضاربين وضن بأخرى فلم تضرب
وليس يبالى رضا المستريح ولاضجر الناقم المتعب
وليس يعبق على الحاضرين وليس يبالك على الغيب
فيا ويحهم هل أحسوا الحياه لقد لعبوا وهى لم تلعب

وهكذا الحياة إذن حين تؤلف . ولكن القصة التى سأرويها لك اليوم كاملة الخطوط لن ترى فيها عوجا ولا أمتا وإن كنت سترى فيها أموال مصر كيف امتهنت ، وأقدار الناس كيف ضاعت . وسترى فيها الرعب وكيف فشا فى حياتنا فى عهد الطغيان الأسود والجبروت العاتى .

كان أستاذا فى الجامعة وقع عليه الاختيار ليكون وزيرا فكان . وكان قد استطاع على مدى أيام حياته أن يبنى لنفسه ولبنيه عمارة يسكن بها هو وأولاده ولم يترك بالعمارة شقة خالية لإبنه حين يتزوج مطمئنا إلى القانون الذى كان ساريا فى ذلك الحين أن من حق صاحب العمارة أن يخلى شقة فى ملكه أو اكثر اذا كان الإخلاء من أجل أبنائه أو بناته عند الزواج .

ولكن هذا القانون ألغى فجأة ودون مناقشة وبأمر قاطع باتر لامراجعة فيه ولاتدبر وبلغ إبنه سن الزواج ووجد العروس ولم يبق إلا أن يجد

العروسان سقفا يضمهما . ووقع الوزير فى حيرة . ووجد بين سكان عمارته شخصا فردا يستأجر شقة ولكنه لايقيم بها وإنما له غيرها فظن فى سذاجة أنه يستطيع أن يفاوض صاحب هذه الشقة أن يتركها لإبنه . ولكن كيف ؟ ومتى كانت الإنسانية عاملا ذا قيمة فى دنيا الجشع .

رفض الرجل وراح يرسل البرقيات إلى كل ذى سلطان . أن الوزير يريد أن يخرجه من مسكنه وانه يستغل منصبه . وملأ الرعب قلب الوزير المسكين وانطوى قطا هالعا . وذهب إلى صاحب الشقة يعلنه أنه تنازل عن رجائه وأنه لايريد الشقة وأنه ليس من الضرورى أن يتزوج إبنه على الإطلاق . فلابأس أن يظل الابن بلا زواج إذا كان فى زواجه سجن الأب وسحقه . فقد كان الوزراء من أساتذة الجامعة أكثر الناس قُرباً إلى الهوان والتدمير إذا ما غضب عليهم السلطان أو أحد الأمراء المقربين للذات العلية .

ولكن هل سلم الوزير .. هيهات كان كلما لقى وزيرا من أمراء الزمان طالعه فى جهامة — ما حكاية الشقة ! ! ويقول الوزير المغلوب على أمره — لا .. لاشىء .. لقد صرفت النظر عنها .

كان الوزير أستاذ الجامعة السابق يدرى كل الدراية أن العلم الذى يحمله يجعله عرضة للتمزيق والتحقير ، فى عصر الجهلاء يصبح العلم تهمة وتصبح الثقافة جريمة لا تغتفر . فأبشع أنواع الجهل العلم الناقص ورحم الله شوقى أيضا حين قال .

كل تعليم تراه ناقصا سلم رث اذا استعمل خانا

وفى يوم اجتمع مجلس الوزارة برئاسة القطب الأعظم وجرى الحديث من فرد واحد يلقى الأوامر لتصبح نفاذا ! ! ولاحظ الدكتور الوزير أن

الذات العلية مشيحة عنه فأوجس كل شرور الدنيا وانتهى الاجتماع ونظر السلطان إلى الوزير المذعور .

— لاتنصرف قبل أن أراك

— أمرك

ستعرف متى ألقاك حين أرسل إليك

— امرك .

ودلفت الذات العلية إلى حجرتها الخاصة وظل الوزير مرتجفا فى انتظار طال ثم جاء له السادن حامل الأختام وقال له

— ما هذا يادكتور الذى صنعته ..

— إبنى لعنة الله عليه أراد أن يتزوج .. وهل تأتى المصائب إلا من الأبناء هل كان لابد له أن يتزوج وهلى ستخرب الدنيا إذا لم يتزوج سخف وحماقة انصبت على دماغى وعلى كل حال أنا اعتذرت لصاحب الشقة وسحبت رجائى الذى توجهت به إليه ولاداعى أبدا أن يتزوج إبنى .

— إسمع أنت ستدخل الآن إلى السلطان قبل أن تدخل حجرته ستجد كوب ماء وأقراص فليوم للتهدئة خذ قرصا ..أو لعل من الأحسن أن تأخذ قرصين وادخل ولا تناقش واسمع فقط .

— امرك ..

وتوجه الوزير مرتعش الأطراف وفتح باب فوجد الأقراص والماء فتناول ثلاثة اقراص . وانتظر لحظات يقرأ الآيات القرآنية لعلها تثبت بعض قلبه الذى أصبح وكأنه بين مخالب طائر يهوم فى السماء صعدا .. ثم قرأ الفاتحة وبسمل وبيد توشك على الشلل فتح الباب وطالعه الهول الآخذ والرعب المبين .

— ما هذا يادكتور ..

وصمت الدكتور وقد أصبح فقدان الوزارة أملا له فى تلك اللحظة . فهو إنما كان يخشى مايلى هذا الفقدان من سجن وعذاب وتمزيق أعراض وأجساد أو كان يخشى التشريد فى أقطار مصر بلا مأوى ولا ملجأ ولا أمان .

صمت وظل البركان ثائرا حتى إذا استوقفت الثورة وبلغت قمتها قال السلطان

— مر على السادن حامل الأختام قبل أن تغادر إلى بيتك . واستطاع الوزير أن يستجمع لسانه ليقول

— أمرك ..

وخرج وذهب إلى السادن حامل الأختام منتظرا أن يصدر إليه الأمر بأن يلزم البيت ويترك الوزارة ولكن أمرا عجيبا حدث قال السادن حامل الأختام .

— مثل هذه الأمور لاتكون هكذا كان عليك أن تخبرنا ونحن نتصرف .

— لم أكن أعرف .

— على كل حال خذ هذان . مفتاحان لشقتين مفتوحتين على بعضهما البعض من شقق الحراسات فى أفخم عمارة فى القاهرة وأخذ الوزير المفتاحين وهو لايصدق نفسه .

ولم يجرؤ الوزير وهو يركب سيارة الوزارة فى طريقة إلى البيت أن يفكر ولو لحظة واحدة أكانت الحراسات قد وضعت على الناس لتصبح أموالهم ملكا خاصا للذات العلية والأمراء والسدنة وحملة الأختام والقماقم .

لقد كان التفكير جناية عقوبتها فى تلك الأيام لها من الشراسة والفجور ما يجعل الإعدام معها رحمة وشفقة ولطفا.

ومع ذلك ما زالت هنالك ألسنة تلهج بمديح تلك السنين السفاكة التى انقذنا منها الله بواسع فضله وغامر نعمته جل جلاله وسبحانه وتعالى عما يشرك به الطغاه المشركين له الحمد وله الشكر فإنه لا موئل للإنسان إلا كريم وجهه .

ماذا فعلتم بأبيكم

أشاهد فى هذه الأيام رواية زينب التى ألفها فى أوائل هذا القرن ابو الرواية المصرية الدكتور محمد حسين هيكل باشا ، وهكذا تعتبر هذه الرواية تراثا أدبيا بدأت به الرواية المصرية مسيرتها حتى بلغتْ اليوم مابلغته .

وقد قدِّمت هذه الرواية فى السينما المصرية وهى صامتة ثم قُدِّمت فى أول الخمسينيات ناطقة . ولا أعرف شخصا ذا اهتمام بالأدب عامة وبالقصة خاصة لم يقرأ الرواية ويستمتع بها .

وحين ألف الدكتور هيكل باشا هذه الرواية كان المذهب السائد فى الأدب الغربى هو المذهب الرومانسى فالرواية رومانسية ناعمة تصور الريف المصرى الطيب وترسم الحب الصادق الذى يصطدم مع الظروف والتقاليد الريفية التى لم تكن حتى ذلك الحين تعترف بالحب .

وجمال هذه الرواية أن تبقى كما هى تمثل بداية الرواية المصرية وتمثل الريف المصرى الناعم الهنئ السلس المجرى الصافى الخير الطيب القلب ، وقد كان من المستحيل فى تلك الأيام أن يحاول أى فرد أو أى حب مصارعة التقاليد الريفية أو الوقوف فى تيارها الذى ينزل فى نفوس الفلاحين منزلة العقيدة أو قريبا من منزلها قربا يجعلها تختلط بالايمان وبالدين .

فرواية زينب إذن لم تكن صراعا طبقيا ، ولا كانت هنالك طبقات فى ذلك الحين بل كان الجميع فى بوتقة واحدة يأخذ القوى منهم بيد الضعيف

والصحيح منهم بيد المريض ، وكانت أجواء القرية كلها حبا خالصا وأخوة وتكافلا ولم يكن قد ظهر فى أفقها من يثير قوما على قوم ولا طبقة على طبقة مازال الريف حتى يومنا هذا وبعد كل المحاولات العنيفة التى بذلت للتفرقة بين أبنائه ما زال حتى اليوم لا يعرف الطبقات ولا يطبق الشيوعية ولا يقبل الكراهية حياة له وديدنا أو شعورا .

وربما عرف الصعيد الثأر وهذا جانب بعيد كل البعد عن سائر ما يعرفه الريف من أخوة وصداقة وحب فالمكان يجمعهم وما يصيب الفرد منهم يصيب الجميع .

وفى هذه الأجواء الصافية الشفيقة كتب هيكل باشا زينب . فبالله عليكم يا من كتبتم زينب الجديدة ماذا فعلتم بأبيكم ؟

ما هذا الحقد وتلك الكراهية وذلك السواد القاتم وهذه السخيمة المقيته التى طمستم بها معالم الرواية ومن أين أتيتم بهذه الشخصيات الحقيرة النفس الوضيعة الأهداف الرخيصه التصرف ؟

هل تتصورون أنكم ما دمتم قد أنعمتم برتبة البشوية على شخصية روائية لا بد أن تنعموا عليها مع الرتبة بالسفالة والانحطاط والجشع والتآمر والسعار وجمود الحس وانعدام المشاعر هيهات ... قد جهلتهم وإنى سأذكر هنا أسماء باشاوات وأرجو أن أعرف رأيكم فيهم ما رأيكم فى أحمد عرابى باشا وشريف باشا ومحمود باشا سليمان الذى رفض الملك قبل تولية السلطان حسين الذى جمع الأحزاب فى داره وأزال ما بينهم من خلافات ود . محمد حسين هيكل باشا ود . مشرفة باشا ود . شوشة باشا وعشماوى باشا ود . على ابراهيم باشا عميد الجراحة ود . المنياوى باشا الجراح ود . ابراهيم شوقى عميد طب الأطفال ود . عبد الوهاب مورو

باشا الجراح الشهير ولطفى السيد باشا ود . عبد الحميد بدوى باشا وعبد الخالق حسونه باشا أمين عام الجامعة العربية وسابا حبشى باشا وأحمد مصطفى باشا المستشار ومحمد صفوت باشا المستشار ، هذه الأسماء أوردتها من الذاكرة وقصدت أن أتجنب ذكر جميع الباشوات الذين لم يكن لهم شهرة إلا فى العمل السياسى فنى ميدان السياسة يختلف الرأى حول رجالاتها وأنا إنما أريد أن أقدم أسماء لم يختلف حولها رأيان ولو أنك أنعمت النظر فى شأن هؤلاء لتبينت حقيقة يريد المؤلفون أن يخفوها عن عمد مزيف مزور سيئ القصد فهم حين يكتبون عن الباشوات لابد أن يجعلوهم جميعا أثرياء ثراء فاحشا ويستخدمون ثرائهم فى غرض واحد هو الإساءة إلى خلق الله لوجه الشيطان وحده ماأجهلكم بعظمائكم .

أكان عرابى ثريا أم مصطفى كامل أم هيكل أم طه حسين أم منصور فهمى أم مشرفه أم كل هؤلاء ، هذا إذا كان الثراء جريمة وإنما لا غفران له هذا هذر قابلناه فى فترة سوداء من تاريخ أدبنا ولكن اعتقد أن هذه النغمة أصبحت نكراء كاذبة تشوه وجه مصر وعظماءها بغير كسب أدبى أو وطنى أو سياسى .

وبعد فماذا صنعتم بأبيكم ومن أذن لكم أن تشوهوا الرواية الأم فى الأدب العربى هذا التشويه المريع ؟ لقد مزقتم رواية زينب شر تمزيق ولقد ضحكنا منكم ضحكات مريرة وأنتم تدخلون شخصية لطفى السيد والمؤلف برئ من ذلك كل البراءة فلطفى السيد باشا كان بمثابة خاله واستاذه وما يتصور الدكتور هيكل باشا أن يجعل منه شخصية روائية ولقد ضحكنا ضحكنا على شر البليه وأنتم تحاولون أن تجعلوا من إبن الباشا

شخصية موازية للدكتور هيكل من قال لكم أن هيكل باشا كان شيوعيا مثل هذا الفتى الذى رسمتوه والذى مثله بكل أسف ممثل أحبه وأعجب به وأشعر أنه قادر على تقريب الناس إليه ومن هذه الفتاة فى الخمار الأسود الحزينة المكشرة عن أنيابها المتحفزة كنمرة شرسة كذئبة أهذه زينب شخصية هيكل باشا أم هى زينب بتروفيسكى أم ساشا المصرية ومن هؤلاء الشخوص جميعا من هذا الفتى الحاقد المليئ بالشر أهذا ابراهيم الذى رسمه هيكل نسمة من هوى وخلجة من فؤاد محب وأنشودة من الصفاء ومن هؤلاء ومن إولئك الأمهات ومن هذا العمدة وما هذا الهراء ؟

فى هذه الرواية التى تدعون أنها زينب كل الشخصيات المفتعلة متهرئة منهارة غير متكاملة .

ولكم كتبت أن كاتب السيناريو له رؤيته الخاصة ، وكم غير كتّاب سيناريو من روايات لى فما غضبت لأنهم ابقوا الفكر الأساسى الذى كتبت له الرواية .

أما هذا الذى صنعتم بزينب فعجيبة من عجائب الدهر . هو تمزيق استحياء وهو اعتداء لا تطور وقتل لا إحياء ولكن زينب هيكل ستخلد الى الأبد فى كتاب .

وإننى أحذر المشاهدين أن يظنوا أن الذى شاهدوه له صلة بزينب هيكل أول رواية فى تاريخ الأدب العربى وإذا كانوا يريدون أن يعرفوا زينب فيقرأوها فى كتاب أو يشاهدوا أحد الفيليمين السينمائيين اللذين ظهرا عنها .

أما هذا الذى بصنعه التليفزيون فليس زينب من قريب أو بعيد .

ياكاتبالسيناريو ان كنت أنت الكاتب الذى أعرفه فقد أذهلتنى فأنا أعرفك كاتبا قديرا وأعرفك مخرجا مجيدا ، فما هذا الذى تصنع ؟

سيدى الأستاذ رواية زينب ظهرت فى مصر ولم تظهر فى الإتحاد السوفيتى ورواية زينب رومانسية وليست بأى حال من الأحوال ولن تكون رواية شيوعية كما صنعتها والعجب أننى اعرف عنك أنك أبعد ما تكون عن الشيوعية والمخرج زميل العمر الذى أخرج المسلسل أبعد مايكون عن الشيوعية فما هذا الذى تصنعان .

احسب أنكما معذوران لقد تمكن الشيوعيون أن يجعلوا كاتبا حرا ومخرجا عميق الديمقراطية يقلبان زينب التى ألفها الدكتور محمد حسين هيكل باشا رواية شيوعية والأمر من قبل ومن بعد للواحد القهار ..

خطاب وتعليق ..

جاءنى هذا الخطاب من الأستاذ أحمد محمد حسين هيكل المحامى ونجل أستاذنا المغفور له الدكتور هيكل وأنى أنشر الخطاب وأعلق عليه ..

أخى ثروت لعلك بمقالك اليوم عن زينب المزعومة عبرت عما كان يجيش بصدرى وصدر كل الذين شاهدوا هذا التزييف الذى تعرضت له أول قصة فى الأدب المصرى الحديث ، وأقول التزييف لأنه ما من شخصية من شخصياتها تمت بصلة حقيقية لأصلها فى الرواية الأم كما سميتها .. وما من معنى من المعانى التى عبرت عنها تلك الشخصيات المزيفة تمُت إلى المعانى التى عبرت عنها شخصيات الرواية الحقيقية بصلة أو سبب وإذا كان مثل ذلك يحدث فى شأن زينب وهى القصة التى قرأها الملايين فى أصلها المكتوب وشاهدتها ملايين أخرى على شاشة السينما .. واحتلت مما كتب النقاد والدارسون آلاف الصفحات فما بالك بما يمكن أن يحدث لروايات لم تتح لها مثل هذه المكانة .. ياحسرة على ما يصنعه التليفزيون بأدبنا كله ..

وما أظن صاحب زينب الحقيقية ليرضى عن هذا الذى يفعله التلفزيون بالأعمال الأدبية وما أظن أننا – وقد تحملنا أمانة حفظ تراثه .. وسنحمل هذه الأمانة إلى النهاية – لنقبل أن نبقى مكتوفى الأيدى تجاه هذا العبث .. ولو أن التليفزيون يريد – كدأبه – إرضاء ميول جمهور المشاهدين فلعله خانه التوفيق هذه المرة كما خانه من قبل فى أعمال أخرى رغم النقد الكثير الذى وجه إليه حينئذ .. وما إخراج التليفزيون لحياة العقاد ببعيد . ولكن أحدا لايتعلم الدرس ولا يعيه .. على أن الذى لايمكن

القبول به تحت أى ظرف من الظروف هو أن يتم ذلك على حساب خير ما فى فكرنا وأدبنا الحديث من أعمال كبرى نعتز بها ويفخر بها الوطن

ومسئوليتنا الأدبية والوطنية تقتضينا أن نحول دون أن يشوه العابثون تراثنا .. ومن هنا فإنى أناشدك عرض الأمر بصفة عاجلة على مجلس إدارة اتحاد الكتّاب ليرى فى الأمر رأيه وليصل من ذلك إلى ما يكفل حماية أعمالنا الأدبية الرفيعة من عبث العابثين . هذا هو الجانب العام فى الموضوع .. أما عن مسئوليتى الخاصة فأود أن أبلغك أن هذا الذى حدث لم نأذن به ولا جرى اتفاق بشأنه مع التليفزيون وسيكون له حديث آخر بيننا وبينه بالطريق الذى رسمه القانون ودمت لأخيك ..

أنا أعرف يا أخى أحمد مقدار الألم الذى تعرضت له وأنت تشاهد رواية أبيك الخالدة تتحول الى رواية أخرى لا صلة لها بها وأعرف أيضا الأسى الذى تعرض له إخوتك وإخوتى وهم يشاهدون رائعة أبيهم يمثل بها بدلا من أن تمثل ونحمد الله أنه أكرم المؤلف العظيم ولم يشهده .. ولكن قد يهون الأمر عليك وعلى إخوتك إذا قدر لك أن تشاهد سائر البرامج فى التليفزيون فسترى يا أخى المد الشيوعى وقد طغى طغيانا مريعا على هذه البرامج .. وسترى أنك رددت بجهد الشيوعيين إلى تليفزيون الستينات .. وأنت تعلم يا أخى كما أعلم أنا أن هؤلاء الشيوعيين مهما يفعلوا فلن يصلوا إلى قلوب الشعب أو مشاعره فإنهم سيجدون دون سمومهم لا إله إلا الله محمد رسول الله تردهم فاشلين خائبين وسيجدون الإيمان بالله عند إخواننا المسيحيين يقصف أقلامهم ويحطم إلحادهم مدحوزا مهانا ...

ولكن الخطر مع ذلك داهم وبيل فها أنت ذا ترى الموجة التى جرفت الرقباء — وهم معذورون — لا يسمحون إلا بالروايات التى تهاجم

كل ذى لقب أو ذى مكانة أو ذى كرامة .. وماذا بيدهم أن يفعلوا وهم يرون الشيوعيين يملأون الدنيا بصراخهم .. أن الشرف لايجتمع مع الكرامة وأن الخلق لايكون لمن يحترم نفسه .

وماذا بيدهم أن يفعلوا وهم يرون الشيوعيين يرفضون أن يكون الإنسان إنسانا إلا إذا كان معدما أما العاملون الكادحون على مكاتبهم أو بجهدهم أو بفكرهم أو بإشرافهم فسحقا لهم وبعدا ..

فالطبيب والمهندس والمحامى والمحاسب والكاتب والمعلم كل هؤلاء طبقة برجوازية ذات تطلعات .

والرقباء ليسوا شيوعيين ولكنهم يرون وجه الإعلام قد استولى عليه الشيوعيون فهم يصرخون فى جميع الصحف وهم يطلون عليك فى أغلب البرامج ..

والأمر ياأخى أحمد ليس مجرد إعلام أو مقالات أو برامج إنما الأمر أخطر من ذلك وأجل شأنا .

إن الحرية الاقتصادية تتعرف وجه الدولة من إعلامها فإذا طغى هذا اللون الأحمر على صوت الدولة فهيهات هيهات أن يطمئن أصحاب رؤوس الأموال المصريون أن يدخلوا بأموالهم إلى ميدان التصنيع وإذا كان المصريون يخافون فالخوف أعمق وأشد فى نفوس رؤوس الأموال الأجنبية سواء أكانت لدول أم لأفراد .

ونحن كما تعلم ياأخى دولة أملها الوحيد فى الإزدهار الإقتصادى والإزدهار الإقتصادى يعتمد على الإستقرار وحرية رأس المال واطمئنانه والشيوعيون كما تعلم أملهم فى الوصول إلى الحكم معتمدين على تخريب الاقتصاد المصرى وزلزلة الثقة فيه عند العالم أجمع دولا وأفرادا .

وهكذا ترى ياأخى أحمد أن زينب جرى عليها ما يجرى لكل الأعمال الفنية الرفيعة فى فترتنا هذه ...

ولكن هون عليك ياأخى فوالدنا الدكتور هيكل خالد مهما تعبث بروايته موجات عارضة لابد لها أن تزول فمحمد حسين هيكل هرم ضخم هيهات أن يؤثر فيه شىء وقد انتهت كارثة هذه الرواية التليفزيونية وما خلفت فى نفوس عارفى أبيك إلا بعض الحسرة ما تلبث أن تزول والكتاب من بعد ومن قبل هو الخالد .. أما هذا الزبد فأنت تعلم أنه جفاء زائل لاقيمة له ودائما ياأخى أحمد لن يصح إلا الصحيح .

لكل عصر جبرتى

أقرأ فى هذه الأيام الجزء الثانى من كتاب تاريخ الحركة القومية لإمام مؤرخى العصر الحديث الأستاذ الجليل عبد الرحمن الرافعى وليست هذه المرة الأولى التى أقرأ فيها الرافعى ولا هى المرة الثانية ولكن الذاكرة لاتعى كل شىء وكثيرا ما تكون القراءة الثالثة أو الرابعة وكأنها القراءة الأولى وهذا الجزء الذى أقرأه مفردا تقريبا للحملة الفرنسية على مصر وقد جاء فيه أن نابليون أصدر فى ٢١ ديسمبر سنة ١٧٩٨ منشورا يقول فيه أنه عطل الديوان منذ شهرين عقابا لأهل القاهرة على الثورة التى قاموا بها ثم يذكر الأستاذ الرافعى نظام هذا الديوان الجديد . ويقول أنه جاء أوسع نطاقا من نظامه القديم ، فهو مؤلف من هيئتين (الديوان العمومى) ويسميه نابليون (الديوان الكبير) والديوان الخصوص .

أما العمومى فيكون من ستين عضوا يمثلون أعيان مصر ومختلف الطبقات فيها وقد ذكرهم الرافعى جميعا أما الديوان الخصوص فيقضى أمر تأسيسه بأن ينتخب من أعضاء الديوان العمومى وعدده أربعة عشر عضوا .

ويقول الكتاب بعد ذلك ببضع صفحات أن نابليون ترك مقاليد الأمور عند سفره فى حملة سوريا لرجلين اشتهرا بالحكمة والدهاء أحدهما الجنرال دوجا والآخر المسيو بوسيليج ولم يدخر هذان الرجلان وسعا فى اتباع سياسة الحكمة والمحاسنه إزاء الشعب ومجاملة أعضاء الديوان واحترامهم ورعايتهم مما حببهما إليهم وخاصة بوسيليج الذى كان لايألو جهدا فى

كتساب قلوب أعضاء الديوان بالمودة والمجاملة والمباسطة ورعاية الحرمات ومبادلتهم الزيارة ومجالستهم في أنديتهم واقتباس بعض تقاليدهم فقد شوهد مرارا فى منزل السادات جالسا على الديوان يشرب القهوة على الطريقة المصرية ويدخن الشبك ويطارح جلساءه فنونا من الحديث فى شئون العلم والعمران ونظام الحكومات فى الغرب والشرق . وكانت له مطارحات طويلة مع الشيخ المهدى الذى يعده أكثر أعضاء الديوان علما وفهما ومعرفة .. وهكذا اكتسب الديوان نفوذا كبيرا فى إدارة شئون الحكومة بما كانت ترجع إليه السلطة الفرنسية فى مهمات الأمور فلم يكن الجنرال دوجا والمسيو بوسيليج شأنا من الشئون المتعلقة بإدارة الأمن فى القاهرة أو بكل ماله مساس بالشريعة وإدارة الضرائب أو بالتقاليد والعادات المرعية إلا بعد مفاتحة أعضاء الديوان واستشارتهم فى تلك المسائل وكانت تسمع آراؤهم فى معظم الشئون .

وإلى هنا أتوقف عن نقل ماجاء به الرافعي وأصيح والهفتاه على مصر ويا حسرتا على ما حل بها فى سنوات الطغيان والقهر والجبروت أيحكم المحتل الغاصب مصر بالشورى ويحكمها إبنها الذي ينتمى بعروقه إلى ترابها بالحديد والنار والقتل والسجن والاعتداء على الأعراض والأديان والشرف والكرامة بينما كان الفرنسيون المغتصبون يراعون المشاعر الدينية والمشاعر الإنسانية .

لبئس ما رأينا العهد وقد كنت خليقا أن أحاول نسيانه فلا أذكره وإنما أذكرنيه هذا الذى طالعنى من كتاب الحملة الفرنسية على مصر ، فقد حرك الكلام الذى قرأته والذى نقلته إليك الأشجان والآلام وآثار الحسرات والأسى أو نحكم بالشورى منذ ما يقرب من مائتى عام وفى عهد طاغية

أيضا من طغاة التاريخ هو نابليون وتحجب عنا الشورى والحاكم مصرى والمحتل قد جلا وأصبحت البلاد جميعها خالصة لأبنائها والعصر قد تقدم الحكم فيه إلى قمم سامقات من الديمقراطية وحرية الفرد وجعل آدميته فوق كل اعتبار لااستثناء لهذا إلا فى الدول الشيوعية التى حطمت كل نبيل وشريف فى حياة الانسان بادئة بالدين ترفضه وتحاربه وبالإنسان تستذله للقمة العيش وتمحق كرامته ثم تحرمه أيضا من لقمة العيش التى رفعتها شعاراً .

وأعود إلى كتاب الرافعى لأقف معه وقفة أخرى فيها شيء من المقارنة التى تملأ النفس لوعة وتمض القلب حزنا ومرارة ، يقول الرافعى فى غضون ذلك — يقصد الاعداد لحملة سوريا — حل موسم الرؤية لاثبات رمضان عام ١٣١٣هـ فأنتهزها نابليون فرصة طيبة وكانت قبل مقره بأيام فأمر بالمبالغة فى الاحتفال وتفخيم موكب الرؤية تملقا لإحساس الأهالى وكان الاحتفال عظيما بالغا سار فيه طوائف الصناع كالمعتاد وذهب المحتسب بهذا الموكب إلى بيت نابليون بالأزبكية وأبلغوه رؤية الهلال فبالغ فى الحفاوة بهم .

وإلى هنا ينتهى سرد الرافعى ثم هو فى ذكاء شديد يورد ما كتبه الجبرتى مؤرخ هذه الفترة أنقله إليك فلما تدرجوا فيها وأطلق لهم الفرنساوية القيد ورخصوا لهم وسايروهم — رجعوا إليها — إلى البدع — وانهمكوا فى عمل موالد الأضرحه التى يرون فرضيتها وإنها قربة تنجيهم بزعمهم من المهالك وتقربهم إلى الله زلفى فى المسالك . فرمحوا فى غفلاتهم مع ماهم فيه من الأسر وكساد غالب البضائع وغلوها وانقطاع الأخبار ومنع الجالب ووقوف الإنكليز فى البحر وشدة حجزهم على الصادر والوارد حتى غلت

أسعار جميع الإصناف المجلوبة من البحر الرومى (البحر الأبيض) ..... الخ .

وهنا وقفت مرة أخرة ... يارحمة الله عليك أيها الشيخ الجبرتى .. حزنت لأبناء بلدك أن أقاموا الموالد وذكروا الله بالطريقة التى تفهمها عقولهم . فاذا كنت تراك فاعلا أو قائلا لو شهدت ما حدث فى بلدك نفسها بعد قرابة مائتى عام واليهود يمحقون جيشك فى ست ساعات ويخلو لهم الطريق من السويس إلى القاهرة ليس فيه جندى واحد . ومجلسك التشريعى من أبناء مصر لا الفرنسيس ولا اليهود فى فرحة غامرة وسعادة طاغية حتى ليعتلى أحدهم صهوة مقاعد المجلس ويروح يرقص بعد أن عقد الحزام على وسطه .

ولكن لاتحزن ياجبرتى فى قبرك لكل عصر جبرتى ونحن مازلنا نعيش آثار هذه الفترة وإن كنا قد تجاوزناها والحمد لله.

ولك التاريخ لن يتجاوزها وإنما هى محفورة فيه وإن وجدت الفترة اليوم من يدافع عنها لأنه كان منتفعا بها أو والغا فى دمائها فالغد سيأتى وتصبح الحقيقة هى السيد الأوحد فى الميدان يصحبها التاريخ وتقرأ الأجيال هذه الصفحات السود من تاريخ مصر كما نقرأك نحن اليوم ياخالد الذكر ياجبرتى ويوم ذاك سيكون الظالمون قد عرفوا أى منقلب قد انقلبوا إليه .

فإن الله سبحانه غالب على أمره منذ الأزل وإلى الأبد الأبيد .

الأشجار والأعشاب وصالون العقاد

أقرأ فى هذه الأيام كتاب أخى الكاتب أنيس منصور عن أستاذنا وأستاذ الجيل الذى سبقنا والأجيال اللاحقة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها عباس محمود العقاد .

وقد عرفت أنيس منذ قرابة ثلاثين عاما وكان التعارف مقاله له فى الأخبار فيها عنف رددت عليها بمقالة فيها نفس العنف بجريدة المصرى . ولم نكن حينذاك قد التقينا ولم تمر على المقالتين أيام حتى التقينا بدار الأوبرا المصرية وتعارفنا وتوطدت بيننا منذ ذلك الحين صداقة تزداد على الأيام عمقا لم يشبها فى يوم من الأيام إلا ما يزيدها توثقا وألفة وتقاربا . وهكذا تحقق بيننا المثل السائر الذى لا أومن به لا محبة إلا بعد عداوة ولكنها كانت عداوة يسيرة هينة لم تبق من عمر الزمن إلا أيام لا تكتمل أسبوعا ولكنها أمدتنا بحادثة ظللنا نتندر بها هو وأنا كلما ساق إليها الحديث بيننا .

وأحسب أننى قرأت كل ما كتب أنيس منصور سواء كُتب فى كتاب أو أنتثر فى مقالات .

وأنيس صاحب أسلوب أعتبره من أذكى الأساليب العربية وقد استطاع فى مقدرة فائقة أن يحافظ على الكلمة العربية الشريفة وعلى النحو وأصول اللغة ولكنه استطاع أيضا أن ينفرد بأسلوب خاص تلمع فيه الومضات التى تدل على الذكاء الحاد وعلى الثقافة العريضة فى وقت معا ، ويمتاز أنيس بالاطلاع الواسع الذى يصل إلى مرتبة الإذهال ثم هو يمتاز بشئ أهم من ذلك فهو قادر على أن يستحضر ما حصله عندما يكتب

بصورة لا أحسب أنها تتوافر إلا لقلة نادرة من الكتاب وربما كنت ظالما لأنيس بهذه الجملة الأخيرة

وما كان لى أن أكتب عن كتاب أنيس الأخير « فى صالون العقاد » فإن هذا من عمل الناقد ولست به وقد أوشكت فعلا أن أترك للنقاد هذه الفرصة بل أننى قد رجوت زميلى الدكتور عبد العزيز شرف أن يتصدى لهذا . ولم أكن قد بدأت قراءة الكتاب بعد . حتى إذا بدأتها بادرت أطلب الدكتور شرف وأسأله إن كان قد بدأ الكتابة فحين علمت أنه لم يفعل عدت أرجوه أن يؤجل مقاله ويترك لى أنا الفرصة . وما كان هذا عن رغبة منى فى تحية صديق جمعتنى وإياه فترة امتدت إلى ثلث قرن من الزمان ، وإنما كان ذلك لأننى وجدت فى الكتاب نفسى وأبناء جيلى وقد استطاع أنيس فى ذكاء باذخ أن يقدمنا إلى الأجيال اللاحقة . وهكذا كان من الحتم أن أكتب . فهذا الذى يقدمه أنيس هو حياتى وحياة زملائى ولداتى وأبناء زمانى . وإن كان أنيس قدم هذا فى السديم المحيط بكوكب العقاد فإن العقاد كوكب من كواكب جيلنا كله وليس منا من لم يدر فى فلكه كما درنا فى أفلاك الآخرين من الكواكب أو قل الشموس إذا شئت ولن تكون مبالغا فجيلى سطع عليه العقاد وطه حسين والدكتور هيكل وتوفيق الحكيم والمازنى بل أننا أيضا رأينا نحن العاملين فى ميدان الرواية والقصة جزءا كبيرا من الطريق على ضياء نجيب محفوظ وهو الجيل الذى يفصل بيننا وبين جيل العقاد وطه أو إن شئت فقل أنه الجيل الذى يكون أحد الوشائج بيننا وبين الجيل السابق عليه .

ونحن أبناء هذا الجيل الذى ينتسب إليه أنيس منصور عشنا الحرية وهى مزدهرة على رغم الاحتلال الأجنبى وتمتعنا بها والقيود تنحسر عن

أطرافها شيئا فشيئا وتزداد ازدهارا فيها وتألقا ثم رأينا القيود تنثنى عائدة إليها تقيدها ولكن لا تقتلها وتعوق انطلاقها ولكن لا تحجبها ثم تتساقط القيود وتعود الحرية إلى الانتعاش . وفجأة عصف بنا الطوفان وماتت الحرية وشهدها الجيل الذى جاء بعدنا قتيلا لا وجود لها فحسب المسكين أن الأصل فى الحرية أن تكون قتيلا فهى عنده كلمة بلا معنى وتاريخ كان ثم اندثر ، وحياة عاشت فى مكان ما . ثم قتلت وأمست بلا حياة وكأنها لم تكن من قبل حياة .

وبين مد الحرية وانحسارها تكون جيلنا وبدأنا معه مسيرتنا كل من الباب الذى فتحته له الحياة ليرى إلى الحياة ويتعرف عليها ، ورحنا ننهل من الموارد الشتى سكارى مفيقين نشاوى متيقظين ، فرحين فى أمل ، ناظرين الى المستقبل دون أن نخاف صلبة تلك الأرض التى نقف عليها ، واثقة خطواتنا حتى وإن كانت مضللة الطريق . كنا نخطئ ونصيب لأننا بشر ولكن كنا نؤمن بأن خطأنا هو الصواب حتى تردنا الحقيقة إلى طريقها ، فلا نفزع ولا نخاف وما لنا لا نخطئ وكيف نكون بشرا إذا نحن لم نخطئ . ولم يكن الطوفان فى حسباننا ولا كان فى حسبان أحد ، حتى إذا عصف كانت أعوادنا هينة المكسر ولكن كانت جذورها ضاربة فى أرض القيم الرفيعة والخلق الأشم والإيمان بأنه هو الله الأحد الفرد الصمد لانخشى غيره ولا يهزنا سلطان إلا سلطانه جل وعلا كنا جيلا ينتسب إلى جيل ثورة ١٩ بالمولد كما أنتسب أنا إليه ، فأبى واحد من رجالها أو بالصلات والتعرف على هذه الكوكبة من مشاعل هذه الثورة كما تعرف أنيس بالعقاد ذلك الرجل الذى خرج من السجن فلم ينتظر حتى يذهب إلى بيته ويستريح هونا من عذاباته وإنما يصيح بقصيدته الخالدة التى قد خرجت

منه كما أنا صحبي هم صحبي وعدوى هم عدوى ماالختلف لى رأى ولا صال لى لون . وتعرف جيلنا على هيكل إن لم يكن بالصلة الشخصية فبما يروى عنه حين اعتذر له الملك السابق أن رئاسة الوزارة إن تكن أخطأته فهى فى طريقها إليه عما قريب فإذا هو يصرخ فى وجهه باللفظ لا بالحنجرة إننى حين أجلس إلى مكتبي لأكتب يصغر فى عينى كل كرسى لمنصب فى العالم ، يوشك الرجل أن يقول له حتى كرسى عرشك ومن هذا الجيل عرفنا معنى أن يكون الإنسان كاتبا .. كاتبا فقط بلا كرسى ولا سلطان ولا منصب ورأينا هؤلاء الرجال فى العاصفة يقف العقاد الأبى وهو لا يكاد يجد قوت يومه رافضا أن يحنى رأسه أو يقول غير ما يعتقد كان هذا الجيل هو إمام جيلنا وكان مثلنا الأعلى .

ويرفت أنيس من جريدة الأخبار وأشهد بعض أصدقائه يعرضون عليه المال فيأبى فى عزة وفى تواضع وأنا أعلم أنه أحوج ما يكون إلى هذا المال الذى يعرض عليه ويعرض عنه . وأشهد العاملين فى الإذاعة وهم يتجنبون الحديث إليه وهو من كانوا يسعون إليه ويبتسم ثم يطلق النكته اللاذعة الذكية العميقة والخالية من الحقد أو المرارة فى نفس الوقت . فهو يعرف أنهم صغار وشأن الصغار أن نعطف عليهم ولا نحقد .

وتنصب الأشجار الباسقة العملاقة من جيلنا عرفت طريقها إلى السماء بعد أن مهده لنا آباؤنا رجال ثورة ١٩ ويعشوشب بعض أفراد من جيلنا ويظل صغيرا ملتصقا بالأرض أو بالحضيض لا قيم له حتى يشب بها . فيتهافت هشيا أو نباتا جافا هزيلا يذروه الهواء ولا أقول الرياح ويحقد العشب على الأشجار ويحاول أن ينفث حقده فى وقاحات مخدرة متخاذلة

وتضحك أشجارنا فمن شأن الأعشاب أن تحقد على الأشجار ومن واجب الأشجار أن تشفق على الأعشاب حين يطأها الرجال والنعال .

وإنني استوحي جملة من العقاد نفسه وأنا أكتب هذا الحديث عن الأشجار والأعشاب .

ورعاك الله يا أخي أنيس أرجعت إلينا نفوسنا ورددت إلى كهولتنا صبانا وشبابنا .

وذو الشوق القديم وان تعزى مشوق حين يلقى لعاشقينا

لقد حلتني اياك وانت تسترد مقالات كتبتها وأحسست أنك نسجتها على نول العقاد . فقد صنعت الصنيع نفسه حين كتبت مقالة وجدت وأنا أقرأها أنها ظل باهت لطه حسين . فقد كان جيلنا يريد أن يكون لكل منه نوله هو وقلمه الذى يتمتع باللون الخاص به فلا يكون تابعا لأحد مهما يكن هذا المتبوع العقاد أو طه حسين . لقد قدمتنا يا أخي أنيس إلى الأجيال التى تلينا خير تقدمة ولو لم تكن فعلت بكتابك إلا هذا فحسبك فقد صنعت جيلا وأقمت بناء باذخا ... هنيئا لك .

من فيض الكريم

اقرأ هذه الأيام كتابا من أعظم ما كتب كاتبنا الكبير الأستاذ يحيى حق . الكتاب بعنوان « من فيض الكريم » وهو فعلا من فيض الله سبحانه وتعالى على الكاتب . والكاتب الكبير يحيى من هؤلاء الذين حين تستمع إليهم تحس بشعور عميق أن الكاتب كثير التفكير يعمل عقله فى كل ظاهرة من ظواهر الكون وهو لايكاد يفلت خلجه من خلجات الحياة دون أن يوسعها تفكيرا وتقليبا لكل وجه من جوهها . وهو فى هذا الكتاب مؤمن مستقر الإيمان مطمئن كل الاطمئنان إنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . ويطالعك هذا الإيمان المستقر المطمئن منذ العنوان الأول فى كتابه « لماذا أنا سعيد لأنى ولدت مسلما » .

وتطالعك هذه المقالة بأعظم أنواع الإيمان ذلك الإيمان الذى يمتزج فيه العقل بالروح والفكر بالشعور يقول فى مطلعه .. « إننا فى الأغلب الأعم نرث ديننا ، نشب على عقيدة آبائنا . فلو كنت مسيحيا مثلا أسلمت بعد بحث ومقارنة واختيار لحق لى أن أكتب هذا المقال تحت عنوان « لماذا أنا مسلم » فمن أجل الصدق وحده أجعل عنوانه « لماذا أنا سعيد لأنى ولدت مسلما » ولا أكتبه إلا فى نطاق مبدأ عام : أن الأديان كلها طرق متباينة متفرقة ولكنها تؤدى جميعها إلى ساحة واحدة . ومع ذلك فأنا سعيد لأنى ولدت مسلما لأن الإسلام جاء للإنسان بنظام يجد فيه فكرة سموه لا انحطاطه ، راحته لاعناءه » .

ثم يمضى الكاتب الكبير فى مقالته التى أسمح لنفسى أن ألخّص ما حوته فهو يرى أن هذا النظام الذى اتى به الدين الاعظم يستند إلى وحدانية الله سبحانه وكل تفكير لابد أن يؤدى إلى وحدة الكون فى عقل الإنسان . وازاء الكون الواحد لابد من إله واحد . هو خالق هذا الكون الواحد . وبما أنه خالق الكون كله فهو رب البشر جميعا لايختص به شعب الرسول دون بقية الشعوب . ويقول الأستاذ يحيى حقى فى نقلة أخرى أنه ليس فى كتاب غير القرآن مثل هذا الإلحاح المفصل على الانسان ليعمل عقله ويتدبر الكون ويفهم أسراره حتى لقد ارتفع طلب العلم إلى مقام الفرائض . ثم يقول الكاتب الكبير أن العقيدة علاقة حميمة بين الخالق والمخلوق لاتحتاج لوسيط . ويمضى الأستاذ يحيى فى مقاله على هذا النسق الرفيع من المنطق الذى يجعل الإيمان أمرا يحتمه العقل وإذا سرنا عمقا مع مقالة الأستاذ يحيى هذه لوجدنا أن الإنسان الطبيعى غير ذى العوج فى المنطق أو الفهم ، وغير ذى الهوى لابد أن يؤمن بوحدانية الله وبعظمة الدين الاسلامى وسموقه وتمكنه . وإن دعوة الكتاب المنزل للتفكير هى وحدها أعظم دليل على قوة الدين ومتانته وأنك لتذكر آية واحدة من القرآن فلا تملك إلا أن تخر ساجدا للواحد الديان ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، سبحانك جل جلالك .

وتذكر هذه الصلة المباشرة بين الإنسان وبين ربه فترسخ فى نفسك عظمة الخالق . فالخالق وحده هو الذى يجعل نفسه موئلا لكل الناس وليس لفئة دون فئة ولا حتى لاتباع دين دون دين آخر . وقد يطيب لى أن نتعمق معا ذلك العنوان الذى اختاره الأستاذ يحيى . لماذا أنا سعيد لأنى ولدت مسلما فقد يدخل فى روع البعض أن معنى ميلادى مسلما أننى لم يكن لى اختيار فى عقيدتى وانما هى فرضت علىّ بحكم المولد وهذا معنى مرفوض

جملة وتفصيلا . فإننا نولد مسلمين ونظل مسلمين بحكم المولد حتى نصل إلى مرحلة التأمل والفكر وحينئذ نتعمق ديننا ونلبث عليه مختارين بالحرية الكاملة وبالفكر البعيد عن كل مؤثر خارجي وإن فعلنا غير ذلك نكن منافقين مخادعين لأنفسنا وللناس جميعا . ويكون إسلامنا غير مقبول عند الله لأنه سبحانه فى علياء سماواته رضى لنا الإسلام دينا على أن ندخله مختارين لامرغمين أحرارا لا تابعين .

والآيات كثيرة كقوله سبحانه لنبيه ﷺ « لست عليهم بمسيطر » وكقوله سبحانه « فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » والآيات فى هذه المعنى متواترة . فإذا عجبت معى لقوم يريدون أن يجعلوا من إنفسهم أنبياء ومسيطرين فى وقت معا ويريدون أن يكونوا مبلّغين وماهم بمبلّغين ومحاسبين وما هم بآلهة . فإن لم يكن هذا هو المروق والفوضى فماذا يكون . وأنتقل فى ربوع الكتاب القيم « من فيض الكريم » للأستاذ يحيى حقى فأقف عند مقالة له بعنوان « لبيك اللهم » يقول فى مطلعها ، « نويت أن أصلى نويت أن اصوم ، نويت أن أحج ، يتطلب الإسلام ممن يؤدى فرائضه أن يكون أول شيء يفعله هو أن يحزم أمره ويعقد نيته على أداء الفريضة ولو سرًّا بينه وبين نفسه والجهر بها أفضل ينطق اللسان وتسمع الآذان ويستقر فى الوجدان ويتجسم المعنى فى كلمات واضحة لها رنينها ومقالها وأريجها فى عقد النية وإعلانها توفيرا لكل الضمانات على صدقها وقضاء على نوازع التشكك والتردد . وهو التوقيع على صك التعهد والإحساس بالالتزام وإعلانه وقبول تحمل مسئوليته . فهو يتطلب منه أن يتيقظ كل التيقظ لما هو قادم عليه من قبل أن يقدم عليه فلا يؤديه أداء آليا . وذهنه سارح أو غافل أو مشغول بأفكار ومطامع » .

إلى أن يقول الأستاذ يحيى « لاعجب أن بدأ البخارى بحديث شريف. كأنه لحن افتتاحية لسيمفونية عظيمة لا حد لإعجابى به وحبى له ولاينقطع لسانى عن ترديده كأن كلماته فصوص من الماس » ... إلى أن يذكر الحديث الشريف وهو قوله عليه الصلاة والسلام .. « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » .

وقد أعجبت بهذه المقالة فى الكتاب كل الإعجاب ورحت أفكر وما لبث أن ومض ذهنى خاطر مضىء كأنه نور مشع . إنما الإسلام كله مسئولية ونية ، المسئولية هى ظاهر الأعمال والنية هى الباعث الخفى . ونحن أمام البشر أجمعين ليس لهم منا وليس علينا لهم إلا الأعمال إما خافيه نفوسنا فهم لايريدون منها شيئا وإن حسبوا أنهم يعلمون . اما نحن أمام الخالق فمحاسبون على العمل وعلى النيه جميعا . وقد نخطىء فى عملنا مع البشر فيحاسبنا البشر حسابا عسيرا لأنهم لايعرفون ما تنطوى عليه ضمائرنا . أما إن اخطأنا عن غير قصد فى مسئوليتنا الدينية أمام الله سبحانه الذى يعلم السر وأخفى والمطلع على طوايا النفس واحنائها فإنه يمحو عنا خطأنا وكأننا ما أخطأنا . ولذلك فإننى أندهش حين أسمع قائلا يقول لآدمى « ياأخى إغفر خطأ فلان فإن الله يغفر ، وهذا منطق مقلوب إن الله يغفر لأنه الله . ولأنه الرحمن ولأنه الرحيم ولأنه الغفور ولأنه المطلع على خفايا الضمائر وأعماقها . أما البشر فما هو برحمن ولاهو برحيم ولابغفور ولا هو بمطلع على الضمائر وإن ادعى ذلك . ومن أجل هذا فإنه لايغفر إلا القوم الأقربون إلى الله جل علاه .

ومن هنا أعجب معى مرة ثانية وثالثة وألفا من هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم قواما على ديننا . أين هم من ذلك وهموا وضلوا وضللوا وخاب

سعيهم . وفشل رجاؤهم من أى تشريع أعطوه لأنفسهم هذا الحق . وما هو لهم حق . أيحسبون أنفسهم آلهة . أين هم من ضمائرنا ومن إيماننا الذى لايدريه إلا الله وحده . والذى اختص نفسه سبحانه بالاطلاع عليه أم يريدون أن يجعلوا الناس أمامهم يقومون بمظاهر الدين وما يبدو منه ، أفهذا هو الدين عندهم ساء ما يحكمون . أن الدين لله وحده . وهو وحده سبحانه موئلنا وملاذنا إليه صلاتنا وصيامنا وزكاتنا وحجنا . وإن لم نؤد هذه الفروض بالنية الخالصة لذاته — جلت ذاته — فهو وحده القادر على أن يردها علينا غير مقبولة . فما هو بحاجة إلى توحيدنا ولا إلى صلاتنا ولاصيامنا ولازكاتنا ولاحجنا ، فإنه سبحانه هو الغنى عن العالمين ، فكيف لهؤلاء المتطرفين أن يعرفوا عن أى مصدر فى نفوسنا نقوم بطقوسنا الدينية .

إنهم يريدون أن يركبوا الدين وسيلة إلى التحكم فينا وويل لنا كل الويل إذا تمكن هؤلاء . وأى فئة أكثر ضلالة من فئة تستغل دين الله وهو دين الله ليصلوا به إلى مطامع دنيوية فانية وإذا كانوا لايعرفون أن كل سلطان إلى زوال إلا سلطان الله . فما شأنها بالدين إذن . وإذا كانوا لايعلمون أن الدين إنما هو احتقار للدنيا وسعى إلى العليا ، وعزوف عن الفانية نظرا إلى الباقية وإذا كانوا لايعلمون أن الانسان كادح إلى ربه كدحا فملاقيه . فهم إذن إبعد ما يكونون عن جوهر الدين ولبابه . فليتخذوا لأنفسهم ملعبا يلهون فيه وبه وليتركوا الدين لعلمائه وفقهائه وليتركوا الناس ليعبدوا ربهم الذى خلقهم والذى يعلم ما ظهر منهم وما بطن وهم له عابدون . حبا وأملا ورغبا ورهبا . وأن الناس فى غناء عن قوم يريدون أن يفرضوا أنفسهم عليهم طواغيت وجبارين والله سبحانه وتعالى جل أن يكون الجهلاء دعاة لدينه الأقوم ولكتابه الكريم .

قراءات ومشاهدات

قرأت فى الفترة القريبة الماضية روايتين ومجموعة قصصية أما الروايتان فهما « تمساح البحيرة » للأستاذة إقبال بركة و « الاختطاف » للأستاذ حسن محسب . وإما المجموعة القصصية فهى « النبش فى الدماغ » للأستاذ أحمد الشيخ . وشاهدت على طول شهر رمضان أغلب مسلسلات التليفزيون وإنما يعنيني منها مسلسل محمد رسول الله وحسبي رسول الله ﷺ سببا للكتابة أما رواية الإستاذة إقبال بركة فهى رواية عظيمة بكل المقاييس الفنية وقد استطاعت الكاتبة المتمكنة أن ترسم شخصية البطلة بكل المشاعر التي تتروح فى نفس فتاة فى مثل سنها ومثل ظروفها الاجتماعية والعاطفية وكما كانت إقبال موفقة فى رسم هذه الشخصية واكبها نفس التوفيق فى رسم شخصيات الأم وصديق الزوج وكانت بالغة التوفيق فى رسم شخصية الأب ولعله من المناسب هنا أن أتكلم عن شخصية الأب هذه فهى شخصية مسطحة وقد جرى كثير من النقاد أن يجعلوا من كلمة مسطحة هجوما على رسم الشخصية جاهلين أن أعظم الشخصيات الدرامية هي الشخصية المسطحة لأنها الشخصية التى تهب نفسها لقضية واحدة لايشغلها فى الحياة غيرها ، وحينئذ تصبح الشخصية شخصية بطولية لايعنى المؤلف من شأنها إلا بالقضية التى كرست نفسها لها وأعماق هذه الشخصية هامة فى الناحية التى تتصل بالقضية التى حرص الكاتب على أن يرصد الشخصية للدفاع عنها فشخصية جان دارك مثلا شخصية مسطحة وهى مع ذلك من أعظم الشخصيات الدرامية التى عرفتها الاعمال

الروائية أو المسرحية على السواء وهكذا يقع النقاد فى أحبولة الكلمة ويظنون أنهم يحطمون الشخصية الفنية إذا وصفوها بأنها مسطحة وإنما يعيب الشخصية أن تكون سطحية وهنا تتجه الكلمة إلى معنى آخر هو السذاجة وعدم الإقناع وهذا طبعا يعيب العمل الفنى ويوشك أن يحطمه وأشهد أن شخصيات رواية « تمساح البحيرة » جميعا بعيدة عن السطحية . إلا شخصية واحدة اعتمدت فيها الكاتبة على ما كانت تنشره وسائل الإعلام دون معايشة لنماذج هذه النفر من الناس . هذه الشخصية هى شخصية الجد فى روايتها فواضح أن الأستاذة إقبال لم تعرف نموذجا لمثل هذا الجد قط ولهذا جاء رسمها للشخصية ترديدا لشعارات هيئة التحرير والاتحاد الاشتراكى وهكذا أصبحت هذه الشخصية باهتة ساذجة سطحية وليست مسطحة . وأنا كنت أرجو للأستاذة إقبال وهى على القدر من الموهبة أن تتعمق هذه الشخصية وتتعرف على أبعادها ولاتكتفى فى شأنها بألفاظ جوفاء تعطى وجها واحدا باهتا لفئة قامت على أكتافها وعلى كدحها لفترة طويلة أعمدة الاقتصاد المصرى . وإن كان فى بعض من أفرادها عيوب فقد كان ينبغى على الكاتبة أن ترى إلى الشخصيات الأخرى التى تمحى عندها هذه المثالب . وكان عليها فى رسمها للنموذج الواحد أن ترى فيه الجانبين وترى فى سماته كل معالم هذا النموذج وهى سمات كثيرة فيه الرفيع السامق وفيه أيضا المادى الذى لارفعة فيه ولاسموق . وحان لى الآن أن أنتقل إلى رواية الأستاذ حسين محسب « الاختطاف » وهى رواية تدل على براعة الكاتب وفطنته وقدرته على رسم المجتمع الذى اختاره فى تفوق وعمق فشخصية الزوجة مرسومة بريشة قادرة صناع وشخصية الزوج الذى عاش فترة من أبشع فترات مصر وهو

المصرى الصميم الذى تجرى دماء مصر فى أعراقه منذ الآف السنين وأحسب أن هذه الشخصية التى رسمها الأستاذ حسن محسب تعتبر نموذجا رائعا لعصره جمعت جوانب من الحياة شقيت بها الحياة وشقى بها لخاصة هذا الجيل الذى يمثله بطل الرواية . وكان الأستاذ حسن محسب عظيما حين نفذ إلى الرواية فى سرعة السهم فإذا نحن منذ اللحظة الأولى فى أعماق المشكلة التى اختارها لروايته وإذا هو يجسد الفجيعة فى سرد روائى بارع ثم هو يلاحق هذه الفجيعة فى نفس البطل ويظهرنا على آثارها ثم ينتقل فى براعة إلى ما كان فى حياة البطل من إحباط بسبب القوة الغاشمة والسلاح الظالم والرواية كلها صراع بين حق الإنسان فى الشرف والحياة وبين السلاح الذى لايعرف حقا .

وحسن محسب كان موفقا كل التوفيق فى رسم هذا الصراع بقلم يجمع إلى الفنية القادرة الإنسانية البللورية الشفيفة وإن كان لابد لى أن آخذ على الكاتب شيئا فهو أنه افتعل التشويق فى نهايات بعض الفصول بينما الرواية بطبيعة موضوعها وبقدرة مؤلفها كان فيها من التشويق ما يكفيها ويزيد .

اما المجموعة القصصية التى قرأتها للأستاذ أحمد الشيخ فقد وجدت فى قصصها أديبا متمكنا قادرا يعرف كيف يضع كلمته ويصونها عن أن تكون لهوا فالكلمة معنى يختارها الكاتب فى قدرة حتى لاتحتاج إلى مرادف لها فهى حادة قاطعة قوية شاعرة إنها فى مكانها الطبيعى غير قلقة ولاهى متوفزة .

وموضوعات القصص بالغة الذكاء تموج بالإنسانية والشفافية وطريقه العرض تجمع إلى الحداثة والتجديد المنطق والمعقولية فهو كاتب عصره ويعبر عنه لأبناء الجيل وبلغتهم وبأسلوبهم فهو يفهم معاناتهم لأنه منهم

وهم يفهمون عنه ويحسون أنهم هم أبطال قصصه وأن عناء المؤلف هو عناؤهم والذى يشغله فى الحياة هو الذى يشغلهم .

أترك الكتاب بعض الشيء وأنتقل معك إلى مسلسل الرسول ﷺ . وأبدأ بأن أهنىء نور الدمرداش عميد مخرجي التليفزيون بهذا العمل العملاق الذى قدمه إخراجا أما النص فلى عنه بعد ذلك حديث . أما نور الدمرداش كمخرج فقد بلغ قمة التوفيق فقد استطاع أن يقدم إلينا المسلمين اعزة شامخين لاأذلة ضعافا خانعين . يلبسون أكرم ملبس متفرحين بما أتاهم الله من فضله فى الدنيا مقبلين على أعتاب الآخرة إقبال المشوق المعدم الذى لايشعر بأن له فى هذه الدنيا ما يبقى عليه ، وهذا هو قمة الإيمان . فالذى يقبل على الموت وهو ضيق بالدنيا رجل ضعيف الإيمان أما الرجل الذى تطالعه الدنيا بوجهها الباسم المشرق فيقبل عليها فى غير معصية ولاجنوح عن سنن الله ونبيه ﷺ حتى إذا دعا داعى الجهاد أقبل على العليا إقباله المتعجل الهانيء السعيد بكل ما يتكشف عنه مصير المعركة فإما نصر فحياة فى الدنيا وإما نصر فحياة أكرم وأعظم فى العليا خالدا هنالك عند ملك الملوك رب العرش سبحانه وتعالى .

واستطاع نور الدمرداش أن يقدم إلينا الشخصيات المؤمنة سعيدة باسمة فحطم بذلك الطقوس البغيضة التى ترسم المسلم حزينا دائما كسيرا مكشرا غاضبا . وتلك عجيبة من عجائب الزمان . ماالذى يحزنه وهو الذى عرف الطريق واتصل ما بينه وبين الإيمان .. وأى شيء يملأ النفس سعادة وهناء وحبورا وطمأنينة ورضا وفرحا وإشراقا مثل الإيمان وكلما كان الإيمان عميقا ازدادت السعادة والهناءة والحبور والطمأنينة .

إن نور الدمرداش مازال يقتعد قمته التى عرفها له العالم العربى لم يتركها بل أحسب أنه يصنع لنفسه قمما جديدة أما النص فلى عليه قول آخر فالأستاذ صبرى سلامة خير من يتكلم العربية فى الإذاعة وأنا لاأقول من خير ولكن هو خير من يتكلمها ولكن الحوار التليفزيونى أمر آخر والحوار فى عصر النبى ﷺ أمر آخر هو أيضا . فالصياغة التى نسمعها فى الحوار وإن كانت مطعمة بالكثير من الأساليب العربية إلا أنها هى نفسها حديثة وليست هى الصياغة العربية التى تواكب ذلك الزمان . وقد سمعنا النغمة الصحيحة فى أسمى مراتبها من الكاتب الكبير عبد الفتاح مصطفى فإن لغة هذا العصر كانت تجرى على ألسنة الأبطال وكأنهم هم الذين يتحدثون من وراء التاريخ ولكن هذا لايمنعنى أن أرحب بأخى الصديق صبرى سلامة فى ميدان التمثيلية وأحسب أنه سيبلغ المكانة الجديرة به إذا هو قدّم إلينا أعمالا فى عصور أكثر حداثة عن عصر النبى عليه الصلاة والسلام .

بين الخطيئة والغفران

مسكين ذلك الإنسان . يبدأ حياته طفلا فالدنيا حوله نور وطهر ونقاء وتتزاحم عليه من الكبار دعاوى الشرف والزهد والعدالة ويتعرف على دينه فيجده ضياء وإشراقا وسموقا ، ثم يدلف إلى باب الحياة وويل له حين يدلف إلى الحياة تحيط به مغريات الجسد وحاجات الإنسان إلى الغنى ويجد أن الإنسان لايصيب مالا وافرا إلا إذا فقد طهرا أو كرامة أو نقاء وتلح عليه الحياة بسعارها ويتمزق بين أضواء الطفولة وبراءتها وبين مغريات العصر وسفالاته والاختيار له وحده . فالله سبحانه فى علياء سمائه هدى عباده النجدين وألهم النفوس فجورها وتقواها وجعل لكل انسان طائره فى عنقه وترك له حق الاختيار فهو إما جانح إلى قويم من النجدين أو جامح إلى معوج منهما .

ويشفق رسول الله ﷺ على أمته جميعا ويقول فى شموخ الإنسان الصادق وعظمة الأنبياء « حفت الجنة بالمكاره » فالذى يختار الطريق إلى الجنة يكره نفسه أن تختار غير ما تهوى ويلويها أن تميل إلى ما تهفو إليه من متعة عاجلة محققة وتتكالب المغريات على الإنسان الضعيف فيزل ثم يثوب إلى رشده فيطلب الغفران ويقول الشاعر : -

وإنى لأرجو الله حتى كأننى أرى بجميل الظن ماالله فاعله

فهو واثق من الغفران ، لأن الله سبحان شرع الغفران للخطئين . ولو لم توجد الخطيئة ماسمى الله نفسه بالغفور . ويقول أبو نواس .

إن كان لا يرجوك الا محسن فبمن يلوذ ويستجير المذنب

ولكن الانسان لايقمع نفسه عن الخطيئة بل ظل متعلقا بها تغريه متعتها ويطيبه إغراؤها وتجتذبه نشوتها . فإذا ورعه من الايمان وازع رده بالأمل فى المغفرة . ويمضى إلى خطيئته لايلوى على شىء حتى إذا انحسر خمارها وثاب إلى نفسه اللوامة تاب وآب وعاد يرجو الله سبحانه الغفران . وهل هناك أوسع من مغفرة الله . سبحانه هو بارىء النفوس وهو العليم الخبير بضعفها . وهو العليم بما يصنعه الشيطان من تجميل الشر ومن جعل الشين زينا والمقبوح من الفعل مكسوا بالرواء والبهاء والجاذبية .

ويظل الإنسان بين شد وجذب وبين إقبال على المحرمات وانصراف عنها . ويبلغ أحدهم الكبر وتحيط به الشيخوخة ويضطره العجز إلى الاستقامة ولكنها استقامة هو مرغم عليها ولم يقصد إليها عن اختيار فهو تائب فى غير عفة . ولايقعد به الكبر أن يصرح بذلك فيقول ذلك البيت الشهير .

هل الله عاف عن ذنوب تسلفت أم الله ان لم يعف عنها يعيدها

وما رأيت بيتا يجمع التوبة والفجور فى شطريه كما يفعل ذلك البيت فهو يرجو الله أن يغفر الله وهو فى الوقت ذاته لايخجل أن يقول للذات العلية إذا كان لابد من العقاب فلا بأس ولكن أرجو أن تتاح لى القدرة على إتيان ذنوبى مرة أخرى لتتوافر لى المتعة مادامت المغفرة غير متاحة وهكذا نجد أن الفجور قديم قدم الصلاح . وأن الفجور لايقف به أمد ولاينتهى عند حد كما أن الصلاح عميق الأغوار بعيد المدى . والإنسانية تتأرجح بين الجانبين بغير حيرة وإنما عن بصيرة ووعى وفى الوقت بين رغبة

عاجلة فى متعة عابرة وبين إيمان عميق الجذور يرجو وجه غفور رحيم .

والإنسان ظالم لنفسه فهو الذى اختار أن يحمل الأمانة التى أشفقت منها السماوات والأرض والجبال وأبيْن أن يحملنها . حتى إذا استجاب الله لسؤال الإنسان وألقى على كتفيه أمانة الاختيار تخبط فى حياته هذا التخبط وراح يضرب فى الأرض ونظره إلى السماء فهو بين رغبات الأرض وبين إيمانه بالسماء فى شد وجذب وإقبال وإدبار .

ويضيق بعض الناس فيعلن إلحاده وكفره مختارا اليأس مفضلا له عن رغب الانتظار موهما نفسه أن اليأس إحدى الراحتين ولكن هيهات فالملحدون أشد الناس عذابا ، لأنهم فى البعيد من نفوسهم أنهم على باطل وهم فى أعماقهم يتمنون أن يحظوا بالجنة التى وعد الله بها المتقين من عباده ، ولكنهم يدركون أيضا أنهم أبعد الناس عنها بما كفروا وألحدوا ويظلون مع أنفسهم فى صراع مرير بين ماأعلنوا من الحاد وما تشعر به قلوبهم من أن صاحب هذا القرآن لايقول الا حقا . وما تزال أفئدتهم بين يأس وأمل وبين إقدام وإحجام فعل اللص المبتدئ يمد يده للسرقة برغبة الغنى حتى وإن كان عن طريق محرّم ويكف يده بأمل التوبة والغفران من الرحمن الرحيم الذى وسع غفرانه ذنوب البشر وشملت رحمته المؤمن والعاصى والعابد والعربيد والقانت والزنديق ويقول شوقى الخالد فى رثاء اسماعيل أباظة باشا :

إلى الله اسماعيل وأنزل بساحة ... أطل الندى أقطارها والنواحيا
ترى الرحمة الكبرى وراء سمائها ... تلف إلتقى فى سيبها والمعاصيا
لدى ملك لايمنع الظل لائذا ... ولا الصفح توابا ولا العفو راجيا

ويعربد أبو نواس ما شاءت له عربدته ويقول شعرا ملحدا يتناقله الناس على مر العصور ويمعن فى الفسوق والمروق متخذا من التظرف ستارا يحتمى فيه . ثم تطالعه السن ويدرك أنه أوشك على النهاية ويصيح صارخا بنفسه « ياكبير الذنب » .

وتمر أمام عينيه حياته جميعا فيرى نفسه محاطا بالنار لايموت فيها ولايحيا ويتبدل جلده كلما احترق له جلد ويأخذه الهول ويلتاع ويدرك أى عذاب هو ملاقيه ولايجد لنفسه الهالعة ملاذا . الا عفو الله ويكمل البيت .

ياكبير الذنب عفو الله من ذنبك الكبير

ويتفكر ويصيح :

كن مع الله يكن لك واتق الله لعلك
لاتكن إلا معدا للمنايا فكأنك
إن لله لسهما واقعا دونك أو بك

ويصيح الزمان فإذا الصوت الذى سمعه ملحدا كافرا زنديقا يعود فيملأ الدنيا إيمانا ومناشدة للمرحمة ودموعا تخضب الأرض فى طلب غفران السماء . .

فالله غالب على أمره . والملحد من دنياه فى عذاب وبيل وهو فى الأخرى لدى عالم الغيب والشهادة وهو سبحانه وحده العالم بمصيره ومنقلبه .

المجتمع والأدب والسياسة

قَدِم إلى الصحفى الأديب الفلسطينى يوسف بركات موفدا من جريدة أردنية كبرى وكان من بين الأسئلة التى وجهها إلىّ ، لماذا يكتب الأستاذ إحسان عبد القدوس مقالات سياسية بكمية أكبر مما يكتب فى القصة أو الرواية ، ألست ترى أنه يجب عليه أن يعود إلى كتابة القصة والرواية ويقلل من كتابتة للمقال .

وكان جوابى على الصحفى هو أن الكاتب يستلهم نفسه فيما يكتب ويترك قلمه على سجيته فإن أرغم القلم على لون بذاته نفر منه القلم وأبى أن يجرى فى يده ، وقد رأيت الموضوع جديرا بمناقشة أكثر اتساعا فالقصة أو الرواية لايستطيع الكاتب أن يقتسرها اقتسارا أو يعتسفها اعتسافا فهى فكرة تثب إلى الذهن يقذف اليه بها مجهول لايعلم أحد إلا الله حقيقتها يسميها بعض الناس وحيا ويسميها بعض آخرون إلهاماً وهى مسميات لمجهول يحاول بها المخلوق أن يستر جهله .

فهيهات وألف هيهات أن يكتب روائى أصيل رواية لا تنبعث شرارتها الأولى من ذلك المجهول الذى نطلق عليه أسماء ولا نعرف عن سره شيئا وكذلك الأمر فى المقالة وفى القصة وفى المسرحية ، فالكاتب يعتمد دائما على تلك الخاطره التى تومض فى ذهنه ثم تتناولها موهبته وقلمه وثقافته وتجربته فتصبح فى الصورة التى يطالع بها الناس ، فليس من حق احد مهما يكن شأنه أن يسأل كاتبا لماذا تكتب مقالة ولا تكتب قصة قصيرة أو رواية او مسرحية لأن الخاطرة الأولى هى التى تحدد للكاتب الطريق الذى يرى أنه يصلح لمسيرة هذه الخاطرة وبلورتها .

وليس من حق أحد أن يسأل كاتبا لماذا يكتب فى السياسة ولا يكتب فى الأدب فليس هناك أدب بلا سياسة الا أن يكون أدبا رومانسيا يستتبع الخيال . فكل أدب عظيم ادب سياسى لأن السياسة تتسع فتشمل كل مناحى الحياة فى المجتمع ، الأدب يتسع ويشمل كل خفايا الإنسان وكل أفعاله ، فإذا لم يلتق الأدب والسياسة ومجال كل منهما الإنسان فإنها تصبح عجيبة من العجائب التى لا يسيغها منطق ولايقبلها عقل سليم حتى الشعراء فى العصور التى كان الشعر فيها وسيلة لكسب العيش ، كانوا يكتبون أدبا سياسا .

فحين يقول المتنبى فى رائعته شعب بوان :

يقول بشعب بوان حصانى   أعن هذا يسار . إلى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصى   وعلمكم مفارقة الجنان

يصبح شعره من عيون الأدب الانسانى والسياسة موضوعها الإنسان فهو يدعو بأبياته إلى السلام ويسخر من الإنسان الذى يترك النعيم ليسعى إلى الشقاء والقتل وسفك الدماء

وحتى حين يصف المتنى شعب بوان وجداوله وعناقيد العنب فيه وخمائله يصف الإنسان ومدى الجمال الذى يستطيع أن يحققه إذا أتقن عمله .

وهذا شأن من شئون السياسة .

وحين يصف سيف الدولة فى الحرب ويقول :

وقفت وما فى الموت شك لواقف   كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة   ووجهك وضاح وثغرك باسم

نجده سياسيا من الطبقة الأولى يصف شجاعة القائد الحربى وما ينبغى أن يكون عليه من الجرأة والسكون والهدوء فى عاصف الحرب ودفاعها والحرب جزء من السياسة .

وإذا تركنا المتنبى وذهبنا إلى البحترى وتذكرنا أبياته الرائعة فى السينية الشهيرة عن إيوان كسرى التى يصف فى أبيات منها الرسوم فى الإيوان ويبلغ القمة الرفيعة من تجسيد هذه الرسوم فيقول :

يغتلى فيهموا ارتيابى حتى   تتقراهمو يداى بلمس

فهو لايصدق أن هذه الرسوم رسوم فيجرى أصابعه عليها ليستوثق أنهم ليسوا أحياء وأنهم حقا رسوم .

هو فى هذه القصيدة يصف التاريخ ومدى الرفاهية التى كان يعيش فيها كسرى والتاريخ مصدر رئيسى للسياسة وتسجيل لها فى وقت معا والبحترى سياسى حين يصف مقتل المتوكل بقصيدة من أروع قصائد الأدب العربى والتى يقول فيها :

أكان ولى العهد اضمر غدره   فمن عجب أن ولى العهد غادره

وهو فى هذه الكلمات القلائل يضع قضية سياسية كاملة مقتضاها أنه لا يجوز أن يقوم بأمر الجماعة غادر لا عهد له ولا موثق .

وإذا تركنا هذا الزمان والشواهد فيه تجل عن الإحصاء وجئنا إلى عصرنا الحديث استحال علينا أن نلم بالشعر السياسى الذى قيل فيه وحسبنا إلى نلق نظرة سريعة خاطفة على شعر أمير الشعراء ولن ألجأ إلى الديوان وأنا أكتفى بما أذكر فى السينية التى يقول فى مطلعها :

اختلاف النهار والليل ينسى | أذكرا لى الصبا وأيام أنسى
وسلا مصر هل سلا القلب عنها | أو أسى جرحه الزمان المؤسى
كلما مرت الليالى عليه رق | والعهد فى الليالى تقسى
نفسى مرجل وقلبى شراع | بهما فى الدموع سيرى وارسى
واجعلى وجهك الفنار | ومجراك يد الثغر بين رمل ومكس
وطنى لو شغلت بالخلد عنه | نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

ولن أذكر شعرا لشوقى بعد ذلك فإن الأمر يحتاج إلى كتب عديده ليلم بشعره السياسى فإن أغلب شعره سياسى وحسبنى أن أذكر بعضا من قصائده «كبار الحوادث فى وادى النيل» «صدى الحرب» «انتصار الأتراك» «بعد المنفى» «مشروع ملنر» «مشروع ٢٨ فبراير» «تكليل انقره» «وداع كرومر» «نكبة دمشق» فإذا أضفنا إلى هذه القصائد أغلب مراثى الجزء الثالث نجد أن السياسة هى المصدر الأول لإلهام شوقى .

وإذا انتقلنا إلى عزيز أباظه نجد كل رواياته سياسية حتى قيس وليلى لاتخلو من السياسة وأن نقاشه لحكم الفرد وحكم الشعب فى روايته قيصر تعتبر من كنوز الفلسفة السياسية .

فإذا تركنا الشعراء وانتقلنا إلى النثر نجد أن جميع كتابنا بلا استثناء تقف السياسة وراء كتاباتهم لا تتركهم ولاهم يبتعدون عنها فطه حسين والدكتور هيكل والعقاد والزيات والمازنى والحكيم ونجيب محفوظ ويوسف السباعى وعبد الرحمن الشرقاوى وإحسان عبد القدوس وفتحى غانم وكل من لم أذكرهم لايكاد يبتعد منهم أحد عن السياسة وإن ابتعد فهو إنما يولى وجهه إلى المجتمع والمجتمع هو مسرح السياسة وشغلها الشاغل .

فليس غريبا إذن أن يكتب إحسان مقالاته وليس غريبا أيضا أن تتجه روايات له كثيرة إلى السياسة بل أن رواياته الاجتماعية هي فى ذاتها سياسة لأن الرواية لامورد لها الا المجتمع الذى هو أساس السياسة فالسياسة هدفها الأول أن ترتقى بالمجتمع أو هكذا يدعى الساسة على الأقل ولايرد على هذه القاعدة خذلان أن جعل بعض الساسة مناصبهم شباكا لمنافع شخصية ففى كل فئة الصالح والفاسد ولايعيب هذا الفئة وإنما يعيب الفرد وحده .

سيدة اللغات

أى حرب طاحنة تلقاها اللغة العربية من الشيوعيين الملحدين والمغرضين والكافرين وليس اللغة العربية هدفا فى ذاتها وإنما يتقصدونها بسهامهم لأنها لغة القرآن الكريم .

والحرب ليست بنت اليوم . ولكنها قديمة قدم الكفر والأغراض الخبيثة وقد خيل إليهم أن نجحوا يوم ألغوا جامعة الأزهر القديم ولم يصبح حفظ القرآن شرطا للإنتساب إلى ساحة الأزهر الشريف ولا إلى حصن دار العلوم العتيد الشامخ .

وتحطمت اللغة على شفاه الأساتذة وانسحقت على شفاه التلاميذ وشب جيل لايعرف اللغة العربية وزاط الأعداء وتهللوا وحسبوا أنهم نالوا ما كانوا إليه يطمحون . وما هى إلا دورة زمن وما أسرع ما يستدير الزمن حتى تبينوا أن اللغة على ألسنة الشباب تهشمت ولكن الدين الإسلامى يزداد فى نفوس الشباب رسوخا وثبوتا وتأصيلا .

ويعود الأزهر إلى الأزهر ، وتملأ زبوع مصر المعاهد الدينية تكاد تغطى قراها جميعا وتعود اللغة العربية إلى الشفاه وما هى إلادورة زمن أخرى نرى ملامحها منذ اليوم حتى يستقيم اللسان العربى كما كان مستقيما . ويرى الشيوعيون الملحدون والمغرضون مراض القلوب مطالع الصباح فيهيج هائجهم ويقول قائلهم إن اللغة العربية ما هى إلاصدى وتمر أيام ولا نقرأ تعليقا على ماقال الرجل المهلوس .

وأعجب ويتملكنى الأسى والحزن والأسف أهانت لغتنا على أصحابها كل هذا الهوان إن الأمم العريقة كلها تعتز بلغتها اعتزازها بشرفها ، فكيف إذا كانت لغتنا هى لسان كتابنا الخالد الكتاب السماوى الوحيد الذى بقى بلغته منذ نزل حتى اليوم وحتى يرث الله الأرض وما عليها ويقول سبحانه فى الآية ١٠٣ من سورة النحل « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذين يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » ويقول جل شأنه فى الآية ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ من سورة الشعراء ، وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين » .

ويقول تقدست كلماته فى الآية ٩٧ من سورة مريم (فإنما يسرناه بلسانك لتبشربه المتقين وتنذر به قوما لدا »

ويقول تباركت آياته فى الآية ٥٨ من سورة الدخان « فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » . فإذا كان اللسان العربى صدى ، فما الصوت ، وإن كان ظلا فما الأصل ، ولماذا يحاول هؤلاء المغرضون فى حمق وإصرار أن يكونوا قوما لدا يصدون على الدين كراهيتهم سما نافعا . أيحسبون أننا يخفى علينا ما يسعون إليه من محاولة تحطيم اللغة العربية وهل يتصورون أنهم سيبلغون الأمل الذى يصوره لهم جهلهم من تحطيم الدين فى نفوسنا إذا حطموا لغة هذا الدين وصوته الأصيل وصوت الآباء والأجداد على مدى آلاف السنين .

لقد حاولوا أن يهاجموا علماء الدين والمصابيح الهداة من شيوخ العقيدة فانهالت عليهم الأقلام فعاجوا طريقهم إلى محاولة تحطيم اللغة العربية قائلين أنها صدى وعجزوا أن يقولوا لأى صوت كانت لغتنا العربية

هي الصدى . أيريدون أن يقولوا أنها صدى التراث الذى يسمونه رجعية وسلفية وتحجرا . أوليس لكل أمة تراثها فى لغتها أوليس للفرنسيين والإنجليز والألمان والإيطاليين واليونانيين تراث لغوى . أهذه اللغات جميعا أصل ، ولغتنا نحن التى هى لغة كتابنا هى الصدى بئس ما يدعون . لماذا نكرمهم ويستخفون أمرنا ، ولماذا نقدس حريتهم ولايقدسون عقيدتنا وهم الملحدون ونحن المؤمنون ونحن الأصل وهم الاستثناء ونحن الأكثرية الكاثرة وهم الأفراد القلة أما يستحيون .

وكيف لهم أن يستحوا وهم الكافرون عقيدة وخلقا وقولا وقلما . ويتصدرون وسائل إعلامنا الرسمية ويتبجحون بهذا الكفر وهذا التجديف ولا يجدون من يردهم وأننا نربأ بأنفسنا أن نقول من يمنعهم فالحرية هى أساس ديننا فديننا الواثق من عظمة تعاليمه يرفض فى كبرياء أن يرغم أحدا على الإيمان به هكذا نزل بالحق وهكذا دعا إليه نبيه ﷺ وهكذا سيظل إلى قيام الساعة .

فالحرية فى ديننا أصل ولهذا نحترم حريتكم ولكن عليكم أنتم أيضا أن تحترموا حريتنا وعليكم لو كنتم على شىء ضئيل من الحياء أن تراعوا مقدساتنا ولاتمسوا عقيدتنا بسمكم الناقع .

اللغة العربية هى لغة القرآن كتاب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها وهى اللغة الوحيدة بين لغات العالم اليوم التى بقى كتابها بلسانها لم يتغير منه شىء ، أليس من الطبيعى أن تكون هذه اللغة هى أعظم اللغات قاطبة فأى لغة فى العالم الذى يعيش اليوم يقرا بها كتاب إلهى إلا لغتنا نحن . أهذه اللغة صدى فما الصوت إذن ! ! وبعد فماذا نحن صانعون بتراثنا جميعا . من قبل الإسلام حتى اليوم . وهل تراث الأدب العربى جميعا إلا

اللغة العربية ترى أيريدنا الملحدون أن نلقي بهذا التراث فى البحر ونتلقى عنهم لغتنا وأدبنا لغة جديدة وأدبا مستحدثا .

ويل لهم بماذا يهرفون . إن لم يكن للأمة تراث فليس لها حاضر ولاينبت جديد من معدوم ولكل فرع أصول فإذا قطعت الأصول قطعت الفروع جميعا . إن التاريخ العربى مرتبط بالتراث الأدبى كل الأرتباط وقد كان الشعر العربى هو المؤرخ لكل أحداث العرب ومن هذا الشعر العربى ومن النثر العربى تكون تراثنا جميعا فهل يكون هذا التراث جميعا صدى .

إننا اليوم ننزل بالبلاد العربية فإذا تحدثوا أمامنا بلغتهم الدارجة أصبح الكلام بالنسبة إلينا غريبا لانكاد نفهم منه حرفا حتى إذا نطقوا باللسان العربى استقام حديثهم وفهمنا ما يريدون . ربما كانت لغتنا العربية التى يقول عنها الكافرون صدى فباى لغة يكون . ياأيها الذى قال هذا لقد عدوت فى قولك على لغة القرآن وعدوت فى قولك على لغة التراث وعدوت فى قولك على لغة الأدب العربى الحديث فلن يكون الأدب أدبا الا ان يكتب بلسان العرب وعدوت فى قولك على لغة التفاهم بين العرب أجمعين .

وبعد مرة أخرى فأى لغة تختارها ليكتب بها الأديب العربى أو الشاعر العربى إذا كتب المصرى لغته الدارجة فإن أحدا لن يستطيع أن يفهم ما يكتب حتى أبناء مصر لأنهم تعلموا القراءة بالعربية الأصيلة وليس باللغة الدارجة وإذا كان المصرى لن يفهم فما بالنا بأبناء العربية من الدول الأخرى . وإلى أين ينتهى بنا الأمر إذا كتب كل عربى بلغته الدارجة أنهم حينئذ سيصبحون كالطيور العجماء تقول ولايفهم أحدا عنها شيئا بل

سيكونون شرا مصيرا وأسوأ حالا لأن الطيور تفهم عن بعضها البعض أما الإنسان العربى فلن يفهم أحد عنه شيئا حتى أبناء وطنه لأنهم جميعا تعلموا القراءة والكتابة باللغة العربية لا بالدارجة . وبهذه اللغة تكتب صحفهم وبها تقرأ نشرات الأخبار فى الإذاعة والتليفزيون .

ما أحسب أيها الكافرون إلا أنكم تهرفون بما لاتفهمون وكبر مقتا أن تقولوا مالا تفهمون فاحذروا أنفسكم فهى حين تجهل يبدأ جهلها عليكم وتصبح لكم شر عدو أما نحن المؤمنين فدينا يزداد مع الأيام قوة ومنعة وانتشارا ولغتنا ستظل إلى ما بعد الزمان سيدة اللغات وإن رغمت منكم كل الأنوف :

لغة العرب لغة الثراء

إن الإنسان لايستطيع أن يعيش متوائما مع نفسه إلا إذا أحس أن له فى مقومات كيانه ما يعتز به ، وهو قادر على أن يختلق هذا الإعتزاز إن لم يجده ، فإذا كان الأمر كذلك مع الفرد ، فهو مع الأمم أكثر وضوحا فكل أمة فى العالم تعتز بأمجادها وتتغنى بها ، وإننى أعارض ما قرأته لأخى الأستاذ أنيس منصور فى أحد مواقفه من رفض لتغنى أبناء مصر بأمجاد مصر متصورا أن هذا التغنى يجعلهم فى غناء عن العمل وأنهم يكتفون بالصوت عن العمل ، وهذا ليس صحيحا فى الشعب المصرى فنحن شعب يغنى وهو يعمل والغناء يحث العامل على النشاط وقديما كان حداء الإبل فى الصحراء يخفف أعباء الطريق على المسافرين ويحث الجمال أن تحتمل المشقة ومن هذا الحداء نبت الشعر العربى كله وكل شعب له خصائصه التى لايشاركه فيها أحد والأمر المؤكد أن كسل المصريين ليس راجعا إلى أنهم يتغنون بأمجاد مصر وإنما هم كسالى رغم أنهم يتغنون بأمجاد مصر فقد كان هذا التغنى خليقا بأن يدفعهم إلى العمل لا إلى النكوص عنه فالشعب كسول رغم أنه يعرف أمجاده ويتغنى بها وليس لأنه يشيد بهذه الأمجاد .

واللغة من أهم المقومات التى تعتز بها الأمم العريقة فأنت تجد الفرنسى وهو ينطق لغته فخورا بهذه اللغة سعيدا أنه ينطقها النطق الصحيح ويكتب بها فى ألفة معها وفى حب لها . يجدد فيها دون أن يعدو على موسيقاها أو على جرس الجملة ووقعها فى نفس المتلقى لها مستمعا كان هذا المتلقى او قارئاً .

وكذلك يفعل الإنجليز الأصلاء فهم حريصون أن ينطقوا حروف لغتهم النطق السليم القوى الواضح وتلمح فى وجوههم الاعتزاز بأنفسهم أنهم يحسنون نطق لغتهم وهم يجددون فى أساليبهم ولكنهم لايعتدون عليها فعل الاب الثرى يقدم لابنه أحدث ما ابتكرته بيوت الأزياء ليراه دائما مشرقا متجددا أنيقا ولكنه لايحاول بأية حال من الأحوال أن يغير من معالم ولده فهو دائما يراه أجمل مخلوق فى العالم

ولقد قرأت منذ قريب كتابا عن بعض رواد مؤلف الرواية الأمريكية بقلم نقاد مختلفين ويوشك النقاد أن يجمعوا أن الكاتب الذى اختاروه لبحثهم كان يحاول أن يجد لغة أمريكية جديدة لأن الشعب الأمريكى حديث التكوين ولم تتأصل له لغة خاصة به أو هو على الأقل كان كذلك حين بدأ هؤلاء الرواد ممارسة اعمالهم الفنية .

واللغة العربية لغة أمة باكملها وهى لغة فرضت نفسها على التاريخ لآلاف السنين والناطقون بهذه اللغة لهم ذوقهم الخاص وهو ذوق رفيع وليس فيه جمود فهو يحب التجديد فى اللغة ولكن لايحب الاعتداء عليها .

واللغة العربية لها خصائصها شأن كل اللغات ، وقد أحب أبناؤها هذه الخصائص حبا نابعا من المشاعر قبل أن ينبع من العقل .

فلغتنا — فيما أعتقد — أعظم اللغات ثراء وقد رأيت من الإنجليز والفرنسيين من بهره هذا الثراء ، فاللغة الوحيدة فى العالم التى يستطيع الشاعر بها ان ينظم خمسمائة بيت على وزن واحد وقافية لا تتغير هى اللغة العربية ، ولو كانت اللغة الإنجليزية أو اللغة الفرنسية بهذا الثراء ما لجأ الشعراء فيهما إلى شعر المقاطع أو الشعر الحديث .

وإذا تركنا الشعر وانتقلنا إلى النثر نجد أن الأسلوب العربي يحب المترادفات فهي تؤكد المعنى وتكسب الأسلوب جمالا ورواء وتضفي على الأثر الأدبي أصالة ومكنة وأبعادا لاتطيق الكلمة الواحدة أن تحملها إلى نفس القارىء .

وإذا كانت اللغة العلمية لاتميل إلى هذه المترادفات فإنها حبيبة في اللغة الأدبية وتلون الأسلوب بتلون الموضوع ثراء وقدرة من اللغة على مواجهة شتى مجالات ومختلف ميادين .

وأنا مع هذا لا أميل إلى الرأي القائل بتعريب اللغة العلمية فإن العلم العالمي عالمي بطبعه وينبغي على المشتغلين به عندنا أن يتقنوا اللغات الأجنبية غاية الإتقان حتى لا ينفصلوا عن العالم المتحضر في أبحاثه التي تكلفهم من الأموال والالات مالا طاقة لنا به والأمر الذي لاشك فيه أن العالم المتحضر ينتفع بجهود علمائنا بما يقدمون من بحوث في ميادين العلم ، وما هذا الذي أقول من قبيل التفاخر وإنما هو واقع تؤيده الحقائق التي لاسبيل إلى نكرانها والعلم تبادل معرفة ، وأن هذا الثراء الذي تتمتع به لغتنا يرسي في نفوسنا ثقة مطمئنة بلغتنا فنحن لانخشى أن تعدو عليها لغة في العالم مهما يكن شأنها وقديما أخذت العربية من الفارسية والتركية ومن الفرنسية والإيطالية والإنجليزية فازدادت ثراء كما أخذت كل هذه اللغات العربية ولم تشعر بهوان فقر أو ذلة حاجة .

والأذن العربية مازالت على رغم تطاول السنين تحب اللغة الأصيلة وتحسن وقع الكلمة المختارة الجميلة ، ولهذا لم ينجح في أدبنا الأسلوب التلغرافي ، فهو لا يصل إلى نفس القارىء في العمل الادبي وإنما يجعله يحس أنه يقرأ كشف حساب لا أدبا فنيا ولاأسلوبا عربيا .

وقد حاول بعض النقاد ممن ذهبوا إلى الغرب والتوى منهم اللسان وفقدوا هناك الذوق العربي أن يضعوا في الأدب العربي قاعدة تقول أن جمال اللغة في العمل الفني يقف حائلا بين العمل وبين مستقبليه وخاصة إذا كان هذا العمل قصة أو رواية .

والحقيقة التي لاشك فيها انهم هم انفسهم وجدوا انهم عاجزون عن كتابة اللغة الفنية الجميلة فانشأوا من القبح قاعدة .

ولما كان الجمهور حين يقرأ يترك نفسه على سجيته ويضرب صفحا عن القواعد المفتعلة التي يريد أن يزيفها عليه النقاد فإنه رفض هذه القاعدة وأصر أن يقرأ أسلوبا جميلا وأقبل على هذا الأسلوب ورفض غيره ولعل الرواية الشاهقة الباذخة التي كتبها أخيرا أستاذنا نجيب محفوظ في الأهرام تؤكد هذا المعنى فإن نجيب محفوظ من أكثر الناس إحساس بجمهور القراء وإدراكا لذوقه ، وأنت ترى أنه بلغ في هذه الرواية قمة فائقة من جمال الأسلوب .

ولقد قرأت منذ قريب بحثا لغويا في بعض التركيبات اللغوية في القرآن الكريم وقد حاول العالم الجليل أن يبرر بعض أساليب القرآن ويتقصى الأسباب التي من أجلها أنزل سبحانه الآية في نظامها هذا الذي نحفظه به ، وضرب مثلا بقوله سبحانه « فبما رحمة من الله لنت لهم » وبقوله « لا أقسم بهذا البلد » وبآيات أخرى كثيرة وراح يستعرض آراء النحاة في هذا الشأن ثم يدلي برأيه ، وعندي أنه لم يكن محتاجا إلى كل هذا الجهد فإن جمال هذه الآيات مستمد من نظامها هذا والله سبحانه وتعالى الذي خلق النفوس هو الأعلم بما يصل إلى بعيد أعماقها ويبلغ منها ما لا يبلغه بيان بشر .

وليس أدل على أن الذوق العربى يحب لغته بكل ما فيها من جمال أسلوبى ومترادفات وتقديم وتأخير من هذا الشعور بالسمو النورانى الذى نقرأ به القرآن الكريم أو نستمع إليه ، وهو شعور يفقد جماله إذا حاولنا أن نحلله أو نرجعه إلى منطق ، انه الحب ولقاء النفس بما تهواه .

ومهما يحاول أعداء اللغة والعاجزون أن يهونوا من شأن الجمال اللغوى ويدفعوا الناشئة إلى لغة التقارير فإن الأديب سيظل محبا للتعبير الموسيقى الثرى الرهيف ، وسيظل القارىء حريصا أن يقرأ ادبا فنيا لا نشرة أرصاد جوية .

تدريس العربية بالعربية ..

قرأت منذ فترة مقالا بعنوان « يجب تدريس الطب بالعربية » بتوقيع سالم نجم أستاذ بكلية الطب — جامعة الازهر.

وأشهد أنني أحسست عند قراءة العنوان بيد عاصرة شديدة العنف تعتصر قلبي .

أو فرغنا من تدريس العربية بالعربية أولا حتى ننصرف إلى تدريس الطب بالعربية . أم نريد أن نجعل الخريج عندنا فى شتى المجالات طيورا عجماء لاتنطق بأى لغة من لغات الكون ..

إن طلبة الطب الآن يتعلمون دروسهم باللغة الإنجليزية وهذا يجعلهم على صلة يمكن أن تكون وثيقة بتخصصهم .. أنريدهم أن يدرسوا الطب بالعربية حتى تنقطع الصلة بينهم وبين هذه المصادر ويزدادوا جهلا ..

وأين هى اللغة العربية التى نريدهم أن يدرسوا بها .. وهل الأستاذ أو الدكتور صاحب التوقيع يظن أن هناك لغة عربية تدرس فى أى مكان .. وكيف .. ومن أين ؟

ومن الذى يدرسها .. ؟ ما تعليمه ما إلمامه بها .. لقد انتهى تدريس العربية الأصيلة منذ سمحنا بكليات الأزهر المتخصصة فى اللغة وفى الشريعة أن تقبل تلامذتها من حملة الثانوية العامة دون شرط حفظ القرآن الكريم فقتلنا بذلك اللسان العربى . ومنذ سمحنا لدار العلوم ان تقبل حملة الثانوية العامة دون شرط حفظ القرآن الكريم الذى كان أساسيا لقبول الطلبة فى هذا الحصن الحصين للغة القرآن والتراث .

وكان الطلبة فى كليات الأزهر وكلية دار العلوم يدرسون الشعر فى جميع عصوره ويحفظون ألفية ابن مالك فيصبحون مرجعا فى النحو ويدرسون العروض وبحور الشعر وكل ما يدخل عليها وما يتصل بها فكان عندنا علماء فى علم اللغة .. إن فات بعضهم الذوق الأدبى الرفيع لم يفته العلم اللغوى الراسخ ...

ولقد صرخت على صفحات الأهرام .. أعيدوا الأزهر إلى الأزهر وتفضل الشيخ الأكبر الدكتور بيصار رحمه الله واتصل بى وأراد أن يزورنى فعزمت عليه أن أزوره أنا وفعلت ووعدنى بأن الذى أطالب به سيتحقق فى مدى عامين ومرت خمسة أعوام ولم يتحقق شىء وكنت قد كففت عن مواصلة المطالبة بعودة الأزهر إلى الأزهر مكتفيا بهذا الوعد من إمامنا الأكبر . ولكن الأزهر أفلح فى إسكاتى فقط وهذا أمر هين لم يكن يحتاج إلى كبير جهد ولم يفلح الأزهر أن يعود إلى الأزهر حتى اليوم .

وما النتيجة ؟ النتيجة هذا الخطاب الذى قرأته فى بريد الأهرام فى يوم الخميس ٨ ديسمبر والذى كتبه طالب بالثانوية العامة عن جميع زملائه طلبة الصف الثالث علمى وأدبى بمدرسة لم تذكرها الأهرام ولست أدرى لماذا أوربما كنت أدرى . وقد نشرت الأهرام الخطاب بعنوان رسالة بليغة وعلق عليه المحرر بصرخة ألم وذعر وقد هالته الأخطاء التى جاءت فى الخطاب . وقد فكرت أن أعيد نشر الخطاب ولكننى رددت نفسى أو ردها عن ذلك شعور بالغثاء والقرف وأنا اقرأ فكيف أمثالك أن أنقل وكيف يستطيع القلم أن يخط هذه الكارثة على ورق .. لاتخف لن أنقل الخطاب إليك فإن كنت قرأته مرة فحسبك مرة ولن أزيدك ألما بأن أجعلك تقرؤه

مرتين وإن كنت لم تقرأه فقد أنجاك الله ولا داعى لأن أصرف إليك من البلاء ما صرفه الله عنك سبحانه وتعالى .

ولكن حسبك أن تعلم أن الخطاب يكاد يخلو تماما من كلمة صحيحة فى الاملاء ولا أقول النحو وحسبك وحسبنا الله .. إنه نعم الوكيل والذى كتب الخطاب هو الفصيح بين إخوانه ، وأخواته هم طلبة الثانوية العامة الذين يختمون اليوم دراساتهم العامة أى أنهم أتموا فعلا أو ينتهون هذا العام من دراسة اللغة العربية جميعا والذى لاشك فيه أنهم أتموا دراسة الإملاء والنحو .

هؤلاء هم المدرسون فى غد والمحامون والأطباء والمهندسون ولسان مصر فى المجتمعات العربية والدولية . وإذا كان هذا لساننا فنحن إذن بكم لا نبين ولا أمل لنا أن نقول .. وويل لغدنا من غدنا وويل للغتنا من الناطقين بها .

فأى لغة عربية تلك التى نريد أن يدرس بها طلبة الطب ؟ وأين هى .. وعلى أى لسان تقال وبأى قلم تكتب ؟

كان الأزهر ودار العلوم هما حصن هذه اللغة ورئيس جامعة الأزهر شيخ جليل عالم باللغة علما أصيلا وعميد دار العلوم وأحد من أدباء عصره شاعرا وأستاذا وعالما بأسرار اللغة وخوافيها ..

ولكن ماذا يستطيع الرجلان أن يصنعا ؟

إنى واثق أن الدكتور أحمد هيكل عميد دار العلوم يبذل من الجهد أقصاه ليقوم اللسان العربى على شفاه طلبته . ولكن كلنا يعلم أن الاتصال باللغة يكون فى السنوات الخضر من حياتنا .. تلك السنوات التى تعلم فيها الدكتور هيكل القرآن الكريم فى الكتاب فاستقام لسانه واستقامت له اللغة

وأحبها وأحبته فماذا هو صانع مع طلبة يلتحقون بكليته المسئولة عن تخريج أساتذة اللغة واللغة عليهم غريبة ولولا المجموع — لعن الله اليوم الذى عرفناه فيه — ماألتحق هؤلاء بكلية دار العلوم ، فهم يدرسون اللغة العربية لأنهم لايملكون أن يدرسون شيئا آخر .

واللغة العربية — شأن كل لغة — كائن حى ذو مشاعر واحساس فهى لاتحب من لا يعشقها ولا تفتح نوافذها وتكشف أسرارها إلا لمن تعلم أنه سادن فى محرابها متعلق بأستارها واهب نفسه لها ولجمالها وإبداعها وفنون سحرها .. أما الشيخ الدكتور فرهود فالأمر بالنسبة إليه أكثر صعوبة وكيف له أن يواجه هذه الكليات التى تدرس الشريعة واللغة والطلبة قادمون إليه لايكادون يعرفون أن اللغة العربية إسمها العربية .. كان الله فى عونه وعون الأساتذة الذين يقومون بالتدريس فى هذه الكليات .

ولقد نسمع قائلا يقول أن الصحابة لم يكونوا كلهم حافظين للقرآن الكريم ..

ولكن لغة الصحابة كانت هى العربية ولم تكن قد عدت عليها تلك العجمة التى تراكمت على اللسان العربى نتيجة اتصاله بالفرس والروم والترك ونتيجة مرور ألف وأربعمائة عام على نزول القرآن الكريم .

وحين نادى اليوم بحفظ القرآن الكريم وعودة الأزهر إلى الأزهر لا نطالب بذلك خوفا على القرآن الكريم .. جل أن يخاف عليه أحد .. وقد جاء فيه وعد قيوم السموات والأرض « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وقد فعل والمطابع اليوم تطبع أعدادا من المصاحف لا تطبعها من أى كتاب آخر ولكننا نطالب بحفظ القرآن الكريم لنحافظ على لغته ولغتنا التى بغيرها لن يستطيع عربى أن يكلم عربيا ..

ونطالب بحفظه لنجد فى غد هداة ودعاة يعرفون كيف يعلمون الأجيال دينهم ولغتهم .

وما أجهل أجيال اليوم بدينهم .. هذا الجهل الذى نشهده من المتطرفين وهم يعرضون على الرأى العام فى شاشات التليفزيون .. وما أجهل أجيال اليوم بلغتهم هذا الجهل الذى لايحتاج إلى دليل أقوى من ذلك الخطاب الذى نشرته الأهرام يوم الخميس ٨ ديسمبر فملأت به نفوسنا حسرة وألما ... ومرة ثانية وثالثة وألفاً .. حسبنا الله ونعم الوكيل ،،

الكاتب حق

قد يحسب بعض الشباب من الكتاب أن الكاتب ثورة دائمة ، ورفض مطلق وتلك نظرة سطحية فجة . أن الكاتب أولا وأخيرا كلمة حق ، أنه صدق مع نفسه ليكون عند الناس صدقا . وإن لم يكن الكاتب عند الناس ثقة وحقا فهو لاشيء وليس يجدى أن يكون له مصفقون وهتافون ودعاة بين الصحفيين . فكل هؤلاء لايستطيعون أن يجعلوا القراء يحترمون الكاتب فى دخيلة أنفسهم .

ليس الكاتب مجرد ضجة فى الحياة . وليس هو طلقات مدافع فى الهواء فذلك شأن أصحاب السرك والبهلوانات وليس شأن الكاتب . أن الكاتب لاعمل له فى الحياة إلا أن يكون موصول الوشائج بالجماهير يخاطب عقولهم . ويهز عواطفهم ويصل إلى الخوافى البعيدة عن نفوسهم . ولن يستطيع كاتب أن يبلغ من هذا شيئا إذا لم يصل إلى مكانة شريفة عند القارىء ، فإن القارىء لن يفتح عقله وقلبه وعواطفه إلا لمن يثق به ويقدر مكانته . قد يختلف معه الرأى ولكنه يحترمه .

ومادام يحترمه فإنه سيناقش رأيه ويواجه كل حجة . وكل رأى برأى فإما أن يقتنع بما يقول الكاتب أو يرفضه ولكنه على الحالين يوقر الكاتب وينزله من نفسه منزلة التقدير والإكبار والإجلال .

والقارىء الذى يستحق لقب قارىء لايأبه بحفلات الزفاف التى تقام لأى كاتب وليس يعنى بالمواكب التى يصطنعها أصدقاء كاتب ما لأعماله ولا يأبه القارىء الجدير بهذا اللقب بطلقات النار التى يطلقها الصغار فى

زفة الصحافة مصوبة إلى الهواء إنما القارىء يعنى فقط بما أنتجه الكاتب من عمل . مقالة كان هذا العمل أو رواية أو قصة أو كتابا أو كان العمل قصيدة أو ديوانا .

قد تصلح هذه المواكب أن تجعل الكاتب شهيرا . ولكن إن كانت الشهرة وحدها هى ما يسعى إليها الكاتب فهذا أتفه من أن يكون كاتبا وأحقر من أن يحمل قلما . إنما الشهرة التى يصيبها الكاتب أثر جانبى يتم له دون أن يسعى إليه فليس الكاتب مهرجا يوزع إعلانات الحفلات ولا هو طبالا يضرب طبوله ليعلو منها الصوت ثم لاتقول شيئا .

إنما الكاتب رأى . والرأى منطق والمنطق ثقافة . والثقافة جهد وبحث وعناء وإن حاول الكاتب أن يستغنى عن هذا جميعا بادعاء الثورة على مجتمعه . أو بالتظاهر برفض كل ماهو مستقر من قيم جماعته وأمته . فإنه قد يشتهر أمره بين الناس حينا ثم ما يلبث أن يخبو منه الضوء فما هى الإعشية وضحاها حتى يصبح بين الناس أضحوكة . أو يصبح على الأقل نسياً منسيا . وإن دام حوله التهليل وإن علت بإسمه الطنطنه فإنه سيظل عند الناس غير ذى مكانة ولا احترام ولا توقير .

وقد تسألنى ما حديثك هذا عن القارىء الجدير بهذا اللقب .. ومن حقك أن تسأل . فقد يظن بعض الناس أن كل من يقرأ قارىء وتلك أغلوطة ما أبعدها عن الصواب .

إن القارىء هو الذى يقرأ للكاتب وليس القارىء من يكتفى بأن يقرأ عن الكاتب وإنه كثيرا ما تكتب الصحف أخبار الكتاب وأنباء ما يشهدون من ندوات أو ما يذيعون من مقابلات بالإذاعة والتليفزيون . وكثيرا ما تتناول الصحف والمجلات أنباء طريفة عن بعض الكتّاب قد تكون مسلاة

للقراء . أو قد تروى الصحف والمجلات أخبارا عما يعد للكاتب من روايات فى السينما أو الإذاعة أو التليفزيون أو المسرح . ولكن الكاتب ليس هذه الأخبار . وإنما الكاتب هو مايكتب ومايقول لا ما يكتب عنه من أخبار ومايقال عن أعماله من أنباء .

ولا بأس بالقارىء أن يطالع هذه الأنباء ولكنه إن لم يقرأ ما كتبه لكاتب من إنتاج أدبى فهو ليس قارئا وإنما هو واحد من الناس الذين يريدون أن يتسلوا بالحديث عن أنباء الكتاب .

القارى الجدير بلقبه هو هذا الذى يتابع الكاتب فيما يكتب وليس فيما يحيا من حياته الخاصة . وهؤلاء القراء نادرون .

أذكر أننى كتبت بجريدة الأخبار مقالة نقدية عن عمل لأستاذنا نجيب محفوظ وفى يوم ظهور المقالة وكان ذلك منذ عشرين عاما ونيف – ظهر بالصفحة الأخيرة من الأهرام خبر عن أننى دعوت ممثلة كانت مرشحة لدور فى فيلم عن احدى رواياتى إلى بلدتى بالشرقية وأننى قدمت لها الفطير المشلتت . وأذكر فى ذلك أننى لم ألق أحدا من الناس إلا حدثنى عن خبر دعوتى للممثلة إلى بلدتى غزالة ولم ألق أحدا حدثنى عن المقالة التى نشرتها بصحيفة الأخبار . كل هؤلاء الذين لقيتهم فى هذا اليوم لا أعتبرهم قراء . إنما هم مطالعون يبحثون عن الأنباء المسلية ليملأوا فراغ يومهم فهم يتسلون بنا ولايقرأوننا .

وأذكر أننى دعيت إلى ندوة عن رواية لى بقصر الثقافة بالاسكندرية لمناقشة رواية لى كانت قد عرضت بالتليفزيون . ولكن الندوة كانت لمناقشة الكتاب طبعا لا العرض التليفزيونى . فأنا مسئول عن كتابى الذى أوقع

عليه ولست مسئولا عن أى عمل ينتج عن رواية لى سواء كان ذلك فى السينما أو التليفزيون أو المسرح أو الاذاعة .

وقبل الندوة جلست بحجرة رئيس قصر الثقافة ليقدم لى فنجان قهوة ، وبينما أنا فى هذه الحجرة قَدِم إلى أستاذ ذو وقار ووجاهة وقدم نفسه لى فإذا هو أستاذ أدب عربى بإحدى الجامعات فرحبت به واستقبلته بما يَليق بأستاذ جامعى وجلس الدكتور إلى جانبى وراح يمتدح روايتى موضوع الندوة ويبدى إعجابه الشديد بها وفى سؤال عابر لم أكن أشك فى إجابته بل ربما دعانى إلى طرحه ذلك الارتباك الذى أشعر به دائما إذا طالعنى المديح مواجهة . فأنا حينئذ لا أجد شيئا أقوله إلا غمغمة ليس لها معنى وهمهمه لاتكاد تبين . وجمعت كلمات سؤالى بصعوبة بالغة وقلت للدكتور :

— طبعا حضرتك تتحدث عن الكتاب . وصعقت وأنا أسمعه يقول فى بساطة بلهاء .

— لا والله فأنا لم أقرأ الكتاب وإنما شاهدته بالتليفزيون . وطبعا لم أكمل الحديث معه والتفت إلى الآخرين الجالسين معنا ورحت أتحدث إليهم وكأن الدكتور غير موجود . إنه ليس بقارىء فكيف يكون أستاذا .

والكاتب لايعنى بهؤلاء الذين يقرأون عنه وإنما يهتم إهتماما بالغا بمن يقرأون له .

والكاتب أيضا ليس يعنى بمن يسبه لمجرد السباب أو يمتدحه لمجرد المديح وإنما يعنى كل العناية بمن يعارضه رأيا برأى وحجة بحجة ويعنى كل العنايه ويحمد غاية الحمد أولئك الذين يمتدحونه عن بينة ووعى مقدرين

فنية العرض عنده وعمق المعانى التى يعبر عنها والابعاد التى تنبعث من اعماله .

ولا يستطيع كاتب أن يرضى الناس جميعا . وأذكر فى عام ١٩٥٨ أن ناقدا تناول عملا لى بنقد قاس عنيف فى إحدى المجلات العربية . ووجدت نفسى وأنا أقرأ المقال أثور ثورة عارمة وأعد نفس للرد عليه . وفى غضبتى طلبت أستاذنا نجيب محفوظ لأشهده على هذا النقد الجائر الذى كتبه ذلك الناقد فاذا نجيب يشعر بالثورة التى تعتمل بنفسى ويقول فى هدوء رزين .

— الله ... ماذا جرى يافلان . وهل تنتظر أن يرضى عنك كل الناس . إننا إذا أرضينا نصف قرائنا نكون قد حققنا نجاحا ساحقا .

ونزلت كلماته على ثورتى ماء قراحا ووجدت نفسى سعيدا بعد غضب ، هادئا بعد فورة . إذا كان نجيب محفوظ يقول هذا فإنه يصبح حتما على من الحتم ألا أغضب لنقد أبدا .

ومنذ ذلك الحين لم أرد على ناقد لعمل لى قط وما أحسب أننى سأرد على ناقد لى أبدا . وفلسفت هذا الموقف لنفسى بأننى إذا كنت اليوم حيا وأستطيع أن أناقش ناقدا فماذا أنا صانع فى غد حين أكون بجوار رب كريم وينقد ناقد كتابا لى . واقتنعت أيضا أنه مادام الناقد قد كون رأيه عن كتابى على النحو الذى نشر به نقده فذلك شأنه . فإنه إذا كان صادقا مع نفسه فهو يعبر عن موقع عملى فى نفسه تعبيرا أمينا . أما إذا لم يكن صادقا مع نفسه فما حاجتى إليه وما حيلتى فيه .

أما الذى يسبنى دون نقد فإننى أجد نفسى كإنسان مسوقا إلى الرد عليه لأبين له على الأقل أن السباب أيسر الأمور وإنه إذا كان يبيح هذا لنفسه فعليه أن يتحمل ما أبيحه أنا أيضا لنفسى .

أما إذا كان السباب من نكرات يحاولون به أن يتواثبوا على أكتاف فإننى أحرمهم من تحقيق أملهم ولا أذكرهم وكأنهم ما قالوا وما كانوا .

والكاتب صاحب رأى ولكل صاحب رأى معارض . وكم اختلفت مع أبى الروحى وزعيم كتاب العرب توفيق الحكيم وكم احتدم بيننا النقاش ولكن هذا الخلاف لم يستطع يوما أن يمس شعورى نحوه بالبنوة وشعوره نحوى بالأبوة وهى بنوة وأبوة لاتقف عند المشاعر بل وتعدوها إلى أنه يعتبرنى المسئول الأول عن كل ما يمكن أن يطلبه أب من إبنه فى مألوف حياة الأبناء والآباء .

وكم اختلفت مع أخى الأعز الكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوى وقد كتب كل منا رأيه المعارض للآخر فما ندت منى كلمة تمس احترامى له واكبارى وما خط قلمه فى معارضتى إلا كل حب وعفة .

وأذكر أننى عارضت رأيا له فى مجلس الشورى معارضة عنيفة ثم خرجنا معا من الجلسة بعد انتهائها وجلسنا فى استراحة الأعضاء نتبادل الحديث ونرتشف القهوة . ويمر بنا إخواننا الكرام أعضاء المجلس فيصيبهم الدهشة والعجب . كيف عارض كل منا الآخر داخل الجلسة ثم خرجنا وكان كلا منا يؤيد الآخر . ولم يدهش الأعضاء بعد ذلك حين رأوه ورأونى يؤيد كل منا الآخر داخل الجلسة فى كثير من الآراء . فإن المعارضة بيننا هى فى ذاتها عارضة وليست أصيلة وهى أيضا لا تجرؤ أن تمس تلك الصلة الحميمة الحبيبة العميقة التى تربط الصديقين الأخوين منه ومنى .

الوحيد الذى لم اختلف معه قط هو أستاذنا نجيب محفوظ على طول سنوات الصداقة الحميمة بيننا . وهى صداقة تزيد عن صلات كثير من

الأخوة وقد زادت — أدامها الله — عن أربعين عاما . والعجيب أن توافقنا في أعمال أدبية كثيرة صدرت له ولى في أوقات متزامنه .

وبعد فأنا لا أعرف أنني — والحمد لله — لاأحمل عداوة لأحد من الكتاب ومهما تختلف بناء الآراء فإنني أكن له الاحترام مادام كاتبا حقا وليس مزيفا وأعتقد أو ربما يحلو لى أن اعتقد أنه هو الآخر يحتفظ لى بنفس هذه المشاعر .

معذرة .. شكسبير

فالأمر الذى لاشك فيه أنك علمت ماصنعناه بك .. فأنت الآن روح بلاجسد وأغلب الأمر أن روحك تتابع مسرحياتك حينما تمثل هذه المسرحيات يعينك على ذلك أنك تخلصت من قواعد الجسوم وابتعدت عن دنيا الناس . وأنت رأيت ما صنعه بك التليفزيون المصرى منذ بضعة أيام . ولكن دعنى أروى للناس ما صنعه عباقرة المسرح بنا نحن المشاهدين العزل الذين لانملك لسيطرتهم التليفزيونية دفعا أو دفاعا . وإنما ينفردون بنا ويصبون علينا جام عبقريتهم فى ظلم لايعرف الرحمة وفى قسوة لا هوادة فيها ولاشفقة .

أعلنوا ياشكسبير أنهم سيمثلون رواية من خوالدك فى التليفزيون فانتعشت بنا الآمال وأعددنا أنفسنا لمشاهدة شكسبير .

وجاء الموعد وبدأ عرض المسرحية ويل للخالدين . ما هذا الذى يصنعونه بشكسبير . ولأى فئة من الناس يقدمون أعماله ومن هؤلاء الذين سيشاهدون شكسبير باللغة العامية ويحمدون ما يشاهدون . أى استخفاف هذا الذى يأخذون به الأعمال الجادة الرفيعة . إذا كنا لانريد أن نحترم شكسبير أفلا نحترم لغتنا العربية على الأقل . ولكن لا . ما إلى إهانة شكسبير قصدوا . وإنما المقصود بالإهانة هى اللغة العربية ذاتها . فهكذا استقر بهم الرأى . أن التقدمية والحضارة والسمو ومواكبة الزمن لاتكون إلا بتحطيم اللغة العربية واصطناع العامية وقد استطاعوا بصوتهم الجهير النكير أن يجذبوا إلى ميدانهم العامى كاتبا أكن له كل احترام وتقدير وهو

الدكتور سمير سرحان الذى اختار العامية ليترجم بها شكسبير وهو شكسبير.

والدكتور سمير سرحان من القلة النادرين الذين يعرفون قدر شكسبير كل المعرفة والذين يجيدون لغتهم العربية كل الإجادة ولست أدرى ما الذى حدا به أن يختار العامية ليترجم بها شكسبير. ولست أدرى أيضا لماذا قبل التليفزيون اذاعتها. أغلب الظن أن الدكتور سمير أراد أن يجدد شكسبير وأن التليفزيون المصرى أراد أن يكرم العامية ويبالغ فى تكريمها لأنه يرى العربية غير جديرة بالتكريم لأنها أصبحت شيئا قديما باليا لايصلح لغة للحديث.

وربما خشى التليفزيون المصرى أن يرميه الجمهور بالثقافة فينصرف عنه ويبتعد عن مشاهدته كأن التليفزيون قد أصبح فجأة شركة إنتاج سينمائية تخشى ألا يشترى المشاهدون التذاكر وتصبح الخسارة خسارة مادية وكأنى بالتليفزيون قد ضحى بالمكسب الثقافى ليضمن الربح المالى. وتلك إذن عجيبة. فالذى أعرفه أن هذه المسرحيات تباع إلى الدول العربية والذى لاشك فيه أن اللغة العربية أيسر عند هذه الدول من اللغة المحلية المصرية. والذى لاشك فيه أيضا أن الشعب المصرى يفهم العربية ويقرأ بها صحفه ويسمع بها نشرات أخباره فى التليفزيون والاذاعة على السواء.

ولكن اللغة العربية مع ذلك أصبحت غريبة فى مصر منذ هجر الأزهر الشريف بناء الأزهر الشريف ومنذ أصبحت دار العلوم وقد انهار الأساس الأعظم الذى كانت تقوم عليه من شرط حفظ القرآن الكريم للإنتساب إليها.

منذ هذا اليوم الأغبر الكئيب في حياة مصر أصبحت اللغة العربية بلا دار تحتمي بها وبغير موئل تأوى إليه . وجاء التليفزيون بمذيعاته اللكناوات فازدادت اللغة العربية تشردا ثم أمعن التليفزيون فعرض الروايات المترجمة من اللغات الأجنبية باللغة العامية ثم ازداد اليوم إمعانا فعرض شكسبير وهو شكسبير باللغة العامية .

اتعجب بعد ذلك أن نجد شبابا لايقوم لسانه ولايعرف لغته . ولغته هذه هي قوام دينه وأساس إيمانه وعلى صرحها الشامخ وفي قمته يقف القرآن الكريم محفوظا مقدسا بامر من العلى القدير . مجهول الأصول تختلط معانيه وأوامره ونواهيه عند الشباب .

ويريد الشباب أن يكون مؤمنا ولكنه يجهل الطريق إلى الإيمان لأن صلته باللغة التي يفهم بها قرآنه مقطعة الأسباب . ممزقة الروابط . منفصلة الأوشاج . وتبلى مصر بالطامعين في الدنيا البائعين لآخرتهم بثمن بخس من رغبة في سلطان فيحرفون كلام الله عن مواضعه ويتخذون منه وسيلة إلى عقول الشباب البرىء الساذج ويشعلون الحريق ويؤججون النار ويعينهم جهل الشباب بلغتهم وقرآنهم ودينهم فإذا مصر المسلمة المؤمنة حصن الأزهر وسماء الآلاف من المآذن تصطلى من اجتماع الأغراض الدنيوية الرخيصة بجهل الشباب الفادح .

وإذا كنا نبكي دما في مصر . فإننا نبكي دما وروحا وقلبا لتفشى الأمية الدينية عند الشباب . وتفشى الضمير الميت وبيع الآخرة بالدنيا عن المغرضين من مثيرى الفتن ومشعلى الحرائق .

والإيمان أعز ما يملك الإنسان في حياته . على شاطىء منه كريم يرسو المضطرب من حياتنا . وعند مرفأ منه مضيء يشرق ما اعتراه اليأس من

مالنا وعند حصن منه منيع تلوذ نفوسنا من نزعات الشيطان . ومن إغراءات الحياة . ومن اللذة الخدامة . ومن المال الحرام ومن الكذب والنفاق والسحت والرشوة وبيع الضمير .

ولكن المغرضين ممن يدعون بالدين علما وماهم بذلك جعلوا من دينهم ساحة يصحبون فيها الشيطان ويقبلون فيها على إغراءات الحياة من اللذة ومن كذب ومن نفاق ومن سحت ومن رشي ومن ضمير مباع . ولكن الله أكبر . والعزة له وحده ولا غالب إلا هو سبحانه .

إن فى مصر مشايخ أجلاء قادرون دائما أن يجعلوا الصحيح وأن ينفخوا فى الباطل فإذا هو زبد جفاء . ويظل الباطل كما كان وكما سيبقى زهوقا هشيما محطما . وقد قال المصابيح الهداة كلمتهم وهم العلماء الأئمة ارتضيناهم للفتيا فى شئون ديننا واخذنا عنهم علمنا بكريم كتابنا وبالصحيح الثابت من سنة رسولنا ﷺ .

وما دعا كتابنا يوما إلى الفتنة بل جعلها أشد من القتل وعلى هدى هذا السنن سار سيد البشرية وخاتم الأنبياء ﷺ . أم جعل المغرضون من أنفسهم أنبياء جددا .. إذن فقد باءوا بسخط من الله ويغضب من رسوله وممن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين . أن الأمر جد لاهزل فيه . فمالى إذن أرى وفى التليفزيون أيضا شيخا يختلق قوانين ما أنزل الله بها من سلطان ويجعل من اللمم كفرا .. أى ردة .. أى أنه يريد أن يقيم حد المرتد على مخطىء أو مخطئة فى رأيه دون أن يثبت خطأها فى عرف جمهور الفقهاء ولا كبار أئمتهم .

إن إنشاء الجريمة لايكون إلا بنص صريح من القرآن ذاته ولايجوز فيها قياس ولا استصحاب ولا استحسان ولااجتهاد فإنه لاجريمة ولاعقوبة إلا بنص .

إذن فهم لم يكتفوا أن يجعلوا من أنفسهم أنبياء جددا ويريدون أن يصبحوا آلهة أيضا أم تراهم لم يقرأوا ماجاء فى معنى الحديث النبوى الشريف . من حلل حراما أو حرم حلالا فليتبوأ مكانه من النار أو كما قال : فإن لم يكونوا قرأوه أو عرفوه ففيم تصديهم للفتيا وفيم جرأتهم على حدود الله وكيف تبلغ بهم القحة أن ينشئوا جرائم تترتب عليها حدود منها إعدام النفس التى حرم الله إيذاءها إلا بالحق .

اللهم ياذا الجلال . نشهد أنه لا إله إلا أنت ونشهد أنك قلت تعاليت وتعالى قولك « اليوم يئس الذين كفروا من دينهم فلا تخشوهم واخشونى . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » من الآية ٣ سورة المائدة .

اللهم ياذا العزة أنت وحدك القهار فوق عبادك وأنت القادر على الفاسقين من عبادك وأنت وحدك تعلم ما لا نعلم وما لا أحد يعلم سبحانك إنك أنت العزيز القدير .

لو .. حرف امتناع الوجود

أنتمى إلى ثورة ١٩ بالمولد فأبى أحد رجالها وما أنا بحاجة إلى ذكر دوره فيها فقد أغنانى عن ذلك كبير مؤرخى العصر عبد الرحمن الرافعى كما أغنانى الأستاذ عبد الحميد جودة السحار بما أورده فى مذكراته عن هذه الفترة وكذلك فعل كل من كتب عن هذه الثورة الخالدة فى تاريخ مصر .

وقد عرفت من أبى تاريخ هذه الثورة منذ بدأت حتى انتهت بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ذلك التصريح الخالد فى تاريخ مصر الذى قال عنه شوقى :

إذا التصريح كان براح كفر　　فلم جن الرجال به غراما
وكيف يكون فى أيد حلالا　　وفى أخرى من الأيدى حراما
وما أدرى غداة سقيتموه　　اترياقا سقيتم أم سماما

وهذا الكلام كان موجها يومذاك إلى حزب الوفد الذى رفض التصريح ثم انتفع بآثاره بصورة لم تتحقق للحزب الذى أتى بالتصريح والذى اشترك فى وضع الدستور وإذا نحن فى هذا الحديث لما انتهينا وما إلى هذه الأحداث نظرت وأنا أكتب مقالى هذا .. وانما هو استطراد أغرانى به الحديث عن الثورة الخالدة .

وكنت عرفت فيما عرفت من أبى أن الثورة سنة ١٩١٩ بدأت فى كلية الحقوق بعد أن كان الشعب المصرى كله متحفزا لها منتظرا لقيامها فى أية لحظة فكانت مصر يوم ذلك شعلة معبأة تنتظر الشرارة وتتوقعها من أى مصدر حتى انقدحت الشرارة من كلية الحقوق .

وعرفت بعد ذلك الرئيس السابق المرحوم خالد الذكر إبراهيم عبد الهادى باشا وكنت دائم الزيارة له لفترة تقارب العشرين عاما وعرفت منه أن طلبة الحقوق نظموا مظاهرة تجمعت فى فناء الكلية تهتف هتافات معادية للاحتلال الذى نفى سعد زغلول ومحمد محمود واسماعيل صدقى وحمد الباسل ووقف ناظر الحقوق الانجليزى يخطب فى الطلبة ويأمرهم بأن يعودوا للدراسة التى جاءوا ليتلقوها رافضا منهم أن يعملوا بالسياسة وصعد ابراهيم عبد الهادى من بين الطلبة ووقف إلى جانب الناظر وقال له اننا جئنا هنا لنتعلم الحقوق ولاسبيل لنا أن نتعلم الحقوق من قوم نفوا آباءنا عن أرض الوطن وليس من المعقول أن نعرف الحقوق من قوم اغتصبوا حقوق بلادنا ثم هتف « تحيا الثورة » وبدأت ثورة ١٩١٩ .

وقرأت مثل هذا أيضا دون ذكر أسماء فى كتاب الرافعى وقرأته أيضا بلا اسماء فى الروايات التى أرخت للثورة مثل رواية أستاذنا نجيب محفوظ (بين القصرين) وكتبته أنا فى روايتى « الضباب » ثم كتبته بصورة أخرى فى روايتى طائر فى العنق وأيضا لم أذكر أسماء لأن الرواية تنقل آثار الاحداث وليس من شأنها أن تؤرخ للأحداث .. ولكنها مع ذلك إذا تعرضت للتاريخ تحتم عليها ألاتشوه معالمه وألا تطمس سماته الكبرى ..

وكم أنا سعيد أن ينشر هذا الذى اكتبه فى نفس اليوم الذى اختاره الخالدون الثلاثة سعد — وعبد العزيز فهمى — وعلى شعراوى ليذهبوا إلى المندوب البريطانى ويطالبوا بإنهاء إلاحتلال والجلاء عن بلادهم بادئين بذلك أعظم ثورة شعبية عرفها التاريخ الحديث .

وكم أنا أسيف حزين أن أذكر السبب الذى جعلنى أكتب هذا الذى أكتب فقد شاء قدرى أن أشاهد فى التليفزيون المصرى رواية عن سلطانة الطرب (منيرة المهدية) فشهدت عجبا .

رأيت تاريخ مصر تصنعه المغنيات والراقصات .. ورأيت السينما المصرية تسجل كفاح مصر بزعامة اولئك المغنيات والراقصات .. فقد شهدنا ألمظ وكأنها مصطفى كامل وعبده الحامولى وكأنه محمد فريد .. وشفيقه القبطية وكأنها سينوت حنا وهانحن أولاء نشاهد منيرة المهدية وكأنها سعد زغلول وزوج ابنتها ابراهيم عبد العال وكأنه ابراهيم عبد الهادى .

وتلك كارثة ولكن انتظر فان الداهية الكبرى لم أذكرها بعد لقد فوجئت أن كل الذى عرفته من أبى ومن ابراهيم عبد الهادى ومن عبد الرحمن الرافعى ومن السحار ومن نجيب محفوظ ومن كل الذين كتبوا عن ثورة ١٩١٩ وكل الذين عرفتهم من رجالات هذه الثورة مثل النقراشى باشا وأحمد ماهر باشا لم يكن تاريخا وإنما كان تأليفا .

فالثورة لم تنقدح شرارتها من كلية الحقوق كما روى أعلامها . وكما ذكر التاريخ وكما قالت الحقب .

وإنما الحقيقة كما جاءت فى الفيلم أن الثورة بدأت من كباريه منيرة المهدية بين كاسات الخمر وضرب الدفوف وعزف الأوتار (وهز الوسط) ودق الصاجات .

وحسب تاريخ مصر الله إنه سبحانه وتعالى نعم الوكيل ..

ولكن يبقى شيء فى هذا الفيلم التاريخى الجليل فهو مثل كل المصائب ليس يخلو من ظاهرة تستحق التسجيل .. فقد صور الفيلم عودة منيرة

المهدية إلى الغناء فى أخريات حياتها بعد أن يبس صوتها وجف ماؤها وتقلصت عن نغماتها الطلاوة وانحسر انطلاقها إلى خفوت ووهن .

والجمهور وحش كاسر حين يتصدى للحكم على فن من الفنون فهو لا يذكر للفنان الذى يعرض عليه فنه ماضيه ولاسابقته فى الميدان وليس يرعى له تقدم سن وليس ينظر إلى السنوات الثقال التى يحملها المشتغل فى الميدان العام مهما يكن نوع هذا الميدان فنا كان أو سياسة أو ثقافة .

وإنما هو يعنى فقط بما يعرض عليه .

وقد وقعت منيرة المهدية فى خطأ فادح حين حاولت أن ترغم الأيام على الشباب فى حين الأيام عجوز مثقلة بالشيخوخة .

ولكن العجيب أن منيرة المهدية لم تكن أول من حاول هذه المحاولة مع الأيام وهكذا لم يكن عجبا أن تكون الأخيرة فمازلنا نشهد من يحاول أن يضفى الشباب على الشيخوخه .

ويعيد التاريخ نفسه .. ويرغم الواقع الواهمين أن يفيقوا إلى الحقيقة ويفيئوا إلى الرشد .. ولكنهم مساكين فإنهم لا يفيئون إلا بعد أن يكونوا قد أهدروا كرامة الكبر فيهم وسحقوا جلال السنين .

وتلك سنة الحياة فى أبنائها فكل إنسان يظن أن ما يقع للآخرين لايمكن أن يقع له وكل إنسان يظن أنه استثناء من البشر لايجرى عليه ما يجرى على سائر ابناء البشر .

ولو أن البشر اتخذ من تاريخ البشر عبرة لحفظ الكبير كرامته ولامتنع القاتل عن القتل وارتدع السارق عن السرقة .

و (لو) حرف امتناع لوجود .. فكيف تكون دنيا إذن إذا هى لم تمتلىء بالمضيعين لكرامتهم الممتهنين لحياة الإنسان المعتدين على حقوق الآخرين .

حياة من السير

كانت أنواع القطن التى تزرع فى مصر فى ثلاثينيات هذا القرن نوعين هما — فيما أذكر — المعرض والزجورا وكان الزارعون يختارون النوع الذى يجود محصوله فى الأرض التى يقومون بزراعتها وحدث أن جمع أحد أعيان الريف الظرفاء قطنه وعرضه للبيع وجاء إليه التاجر يريد أن يشتريه وسأل التاجر .

— ما نوع قطنك .

— أيهما الأعلى سعرا .

— المعرض .

— إذن فقطنى معرض .

— عظيم وأنا اشتريت .

ودفع التاجر العربون وفى اليوم التالى أتى بالأكياس لتعبأ ودخل يرى القطن ولكنه قبل أن يمد إليه يده عرف القطن ونوعه والتفت إلى الظريف البائع .

— ولكن يابك هذا القطن زجورا وليس معرض .

— كيف .

— أنا لا أحتاج للفحص .

— ولكن هذا الذى تقول غير صحيح .

— كيف؟ هذا أمر لا يختلف فيه إثنان .

— قل لى أولا قطن من هذا ؟

- قطنك أنت .

— فأنا وحدى صاحب الحق فى تسميته وقد سميته معرض وأنا حر .

وأصبح هذا الحوار نادرة يتندر بها أبناء المنطقة جميعا على أنه نكته يتناقلونها أو على الأقل هذا ما كنت أظنه أنا حتى جاد علينا الزمن الأخير بجماعة من النقاد يصنفون الكتاب حسب ما يشتهون يثبتون من يشاءون فى قائمة الأدب وينفون عنها من لايرضون عنهم وإن كان الفلاح الظريف قد رأى أن محصول قطنه ملكه هو يسميه بالإسم الذى يختاره ، فقد رأى النقاد الذين أشير إليهم أن الساحة الأدبية جميعها ملك لهم يدخلون فيها من يشاءون ويمنعون عنها من لايتفق معهم فى المذهب ومن لايبذل ماء وجهه عند أقدامهم لينال منهم تذكرة الدخول إلى الساحة الأدبية التى استقر فى أوهامهم أنهم يملكونها .

والإذن منهم بالدخول أو المنع يقع بأحكام نهائية لا حيثيات لها ومن ثم فهى أحكام غير قابلة للاستئناف أو لإعادة النظر .

فالحكم منهم يصدر بالصمت أحيانا أو يصدر فى أحيان أخرى بمرسوم او فرمان خديوى يرسم الأسماء التى يرضون عنها أدباء ولايذكر أسماء المغضوب عليهم .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يدخل إلى جنته من أحسن عملا وإلى جحيمه من أساء وإذا كان جل علاه يعرض الناس فى يوم الحشر ويحاكمهم مع أنه يعرف ما يخفون وما يبدون وإذا كان تقدس عدله يريد لعباده أن يكونوا على بينه من أسباب الحكم لهم بجنات النعيم أو الحكم عليهم بعذاب الجحيم فإن النقاد يستكثرون هذا على عبادهم من الكتاب

فيقربون من يستلطفون ويتجاهلون من يستثقلون ولايقبلون أن يسألهم أحد من الناس لماذا فهم يرون أنهم فوق السؤال بل المساءلة .

ولهذا لم يكن عجيبا أن يصبح الكتاب والقراء فى واد والنقاد فى واد آخر صنعه لهم كبرهم الكاذب وخداعهم لأنفسهم واعتقادهم الموهوم أنهم من جنس غير جنس الناس ، ومن طينه غير طينتهم .

ولما كان الناس الذين هم القراء لايحبون أن يخاطبوا جنسا غير جنسهم فقد أصبحوا بعيدين كل البعد عن النقاد لايشعرون بهم ولا ينتظرون رأيهم فيما يصدر من أعمال فنية وتصدى القراء أنفسهم للحكم على الأعمال الفنية يقبلون عليها بالقدر الذى يقدرونها به غير ملتفتين إلى النقاد وآرائهم .

ولكن هذا الحديث عن بعض النقاد ليس يمنعنى أن أذكر أن هناك نقادا من الجيل الذى لا أستطيع أن أصفه بالشباب ولا أستطيع أن أتجاوز به الكهولة ولكنه جيل يمثل عندى لطف الله الذى يرسله سبحانه عند كل خطب ليزيح بالأمل فيه قتامة اليأس .

ولكن أفراد هذا الجيل قلة لا تستطيع أن تواكب الأعمال الفنية الكثيرة التى ينتجها الكتاب المنشئون .

اما النقاد الذين مارسوا النقد فى الخمسينيات والذين تجاوزوا اليوم الكهولة والذين كنا نأمل عندهم أن يتصدروا حركة النقد الأدبى فى مصر والعالم العربى فقد انشغلوا بغير النقد وانصرفوا عن تقديم الأعمال الأدبية للناشئة وعن تعميق الأعمال الفنية .

وإنى أكتب هذه الكلمات فى ذكرى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين الذى ظل إلى آخر يوم من أيام حياته يشجع ناشئه الأدب ويقدم أعمال الكبار من الكتاب .

والدكتور طه حسين زعيم جيل العمالقة وقد كان رحمه الله أديبا شاملا لأنه أدرك أن الدور الذى ينبغى لجيله هو أن يفتح النوافذ جميعا بين الأدب العربى والآداب العالمية جميعا فقد كان أستاذا فى الجامعة وكل أجيال الأساتذة فى الأدب العربى اليوم هم تلامذة تلامذته وهو أول من وضع النقد العربى على الأسس العالمية بعد أن كان النقد فى كتب التراث لايزيد عن أحكام جامعة أو استقصاء للالفاظ أو وضع قواعد نقدية للشعر وحده وما كان هذا قصورا عند هؤلاء النقاد القدامى فقد كان الشعر هو الأدب العربى كله أو يكاد ولم تكن الألوان الجديدة من الأدب قد ظهرت بعد فى أدبنا .

فحين ظهر مسرح توفيق الحكيم بادر طه حسين يشيد بهذه الظاهرة الجديدة فى الأدب العربى ، وحين ظهرت زينب لأستاذنا العظيم الدكتور محمد حسين هيكل باشا لم يكتف الدكتور طه حسين بالنقد وإنما كتب فى الرواية حتى لنكاد نقول أنه لم يترك لونا من ألوان الرواية دون أن يكتب فيه ، فهو يكتب صراع الإنسان مع عقبات الحياة فى الأيام التى لا أحب أن اعتبرها سيرة ذاتية وإن كانت تروى تاريخ حياته إلا أننى أعتقد أن السيرة الذاتية لا تتحقق إلا إذا أسفر الكاتب سفورا تاما عن إسمه وعن شخصيته الحقيقية أما إذا روى عن شخص آخر حتى وإن لم يتخذ له إسما قائلا عنه الفتى مثلما فعل الدكتور العميد ، وإن هو اصطنع لأشخاص الرواية أسماء غير أسمائهم فإن العمل حينئذ يصبح عملا روائيا لايحاسب الكاتب محاسبة تاريخية وإنما ينظر إليه على أنه إبداع فنى .

وكتب طه حسين الرواية الرمزية فى شهرزاد وكتب رواية الأسرة فى شجرة البؤس وكتب رواية الصراع مع التقاليد فى دعاء الكروان وكتب

صراع الإنسان بين آماله وقدراته فى رواية أديب وإنشاء الأعمال الفنية القصصية والروائية التاريخية وعلى هامش السيرة وفى المعذبون فى الأرض ولا سبيل إلى الإحصاء الكامل . ثم ننظر إلى الدكتور العميد فتجده قد ألف فى التاريخ أعمالا أصبحت برائع أسلوبه وبتدفقه كالغدير حينا وكالبحر أحيانا أعمالا أدبية من سوامق الأدب العربى مثل مرآة الإسلام والشيخان والفتنة الكبرى .

ولا يقف الرائد العميد عند هذا بل يقدم الأعمال الفنية الكبرى فى الأدب الفرنسى من مسرح وقصة .

فليس عجيبا إذن أن يعرف العالم العربى هذا الجيل على أنه جيل الأدب الشامل الذى يعمل قلمه فى شتى مناحى الأدب وفروعه وكان طبيعيا أن يكون الجيل التالى له هو جيل التخصص ، فيتخصص أدباء فى فن الرواية والقصة وآخرون فى فن المسرح وآخرون فى الأدب النقدى .

وقد ظهرت أجيال الروائيين وتتابعت أعمالهم وملأت الساحة الأدبية فى العالم العربى اجمع .

وظهر جيل المسرحيين وإن كان مقصرا بعض الشىء وظهر النقاد إلا أنهم قليلا ما ثبتوا فى مواقعهم ثم مالوا إلى الأدب الإنشائى أو البحث عن المال أو الصمت الكامل فأصبحوا وهم لاينتمون إلى الأدباء المنشئين ولاهم إلى النقاد ينتسبون ، واكتفوا بأن يطلقوا حكما عاما ظالما لاعدل فيه ولاحق أن الحركة الأدبية قد خمدت ليعفوا أنفسهم من تأثر الأعمال الأدبية والكتاب الجدد وتقديمها وتقديمهم بينما الحقيقه التى لاشك فيها أن

الحركة الأدبية ثرية غاية الثراء بما يكتب كبار الكتاب غنية كل الغناء بالأجيال الجديدة التى أصبحت اليوم مئات من القصاصين والروائيين والمسرحيين والشعراء .

وبعد فليس عجبا أن تثير ذكرى الدكتور العميد كل هذه الخواطر فهو من يصدق عليه قول أمير الشعراء .

لم يمت من له أثر — وحياة من السير
ادعه غائبا وإن — بعدت غاية السفر
ايب الفضل كلما — أبت الشمس والقمر
إنما الميت من مشى — ميت الخبر والخبر
من إذا عاش لم يفد — وإذا مات لم يضر

رحم الله العميد والأمير جميعا .

أما نحن .. فلا نعجب

تقول إبنتى ما معناه

— ياأبى سمعت عن قوم يعملون اليوم عند أثرياء من دول البترول وكانوا فى مصر يحملون ألقابا ورثوها وهى ألقاب رفيعة أقصى ما تكون الرفعة سامقة أعلى ما يكون السموق وكانوا يملكون أموالا . ولاشك أن المال مهما يكن مصدره واللقب مهما يكن موروثا خليقان أن يكسبهما شيئا من الكبرياء وقد كنا نسمع أنهم كانوا متكبرين فى الأرض . وأنا ياأبى لا أعجب لهؤلاء القوم أن يعملوا لدى أصحاب الثراء فمن حق كل إنسان بل من واجبه أن يبحث عن الرزق ولكن المهنة التى يمتهنون حقيرة غاية الحقارة دنيئة كل الدناءة حتى أننى لا أسمح لنفسى أن أنطق بها فقلت لإبنتى :

— احمد الله يا إبنتى أن جيلك يملك ملكة التعجب والدهشة فإننا نحن جيل حرم علينا أن نعجب من شىء أو ندهش لأمر ، فقد مر بجيلنا من الأهوال ما أفقده نعمة التعجب .

وإن كنت عجبت من أمر هؤلاء فلأنك لا تعرفين أنهم قوم كانوا على قدر من الغباء لم يتح لجماعة من الناس قط . فقد سكبت عليهم مصر من نعمها ما جعلهم على قمتها ثراء ومكانة وجاها وسلطانا وبدلا من أن يشكروا لها أنعمها ويندمجوا بشعبها ويبذلوا من أموالهم ومن جاههم ما يعين بائسا ويكسو عريانا ويقيت جائعا وبدلا من أن يتصدروا جهات البر وجمعيات الخير طغى أغلبهم واستكبر وشغلوا بكل حقير تافه من الحياة إلا قلة منهم

كانت حيث ينبغى لها أن تكون والشكر لهذه القلة محتم لأنها أختطت فى الحياة طريقا لم يسنه لها الكثرة الغالبه من أسرتها .

أما الكثرة الغالبة فكانت غارقة فى غيها وترفها الفارغ وكانت لا تنطق العربية وتتعلم كل اللغات إلا لغة مصر التى تعيش من جدواها ومن خيرها . فحين نزلت بهم الكارثة تمزقوا أشتاتا من الأدميين لايجدون ملجأ أو ملاذا وهانوا على أنفسهم وهانوا على الناس ولاشك أنك يا إبنتى سمعتنى أردد بيت المتنبى .

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

فإن العظمة يا إبنتى والكبرياء واحترام الذات لايكونها المال والسلطان وإنما هى تنغرس فى داخل النفوس الشريفة إذا كانت لاتقدم إلا صالحا ولاتسعى إلا للخير ولاتعمل إلا كل ما هو شريف نقى يعود نفعه على المجتمع بأسره وليس على فرد ولا على أسرة فقط . فهؤلاء يا ابنتى لهم عذرهم إذا هم انحدروا إلى مهاوى الحضيض فما كانوا عظماء قط وما كان انتفاخهم إلا هواء فاسدا . ومظهرا خداعا لايقتنع به إلا من كان تافها مثلهم .

فلا عليك يا إبنتى أن تعجبى ولكن أليس الأولى بك يا إبنتى أن تعجبى من أقوام آخرين . ألا تعجبين من قوم هبط عليهم الثراء الفاحش تصيدوه من كل طريق ملتو ومن كل مظنة عفنة حتى أصبحوا على جبل من المال وان يكن مالا حراما . ألا تعجبين منهم بعد ذلك يظلون يجمعون المال لايشبعون . وربما قلت يا أبى إن هؤلاء أصبح جمع المال بالنسبة إليهم غاية لاوسيلة وإننى يا إبنتى إذا قلت هذا سأوافقك عليه ولكن ألا تعجبين أنهم لايزالون يبيعون كرامتهم بيع السماح ويقبلون أن يكونوا موطئا للنعال

ويقبلون أن يظلوا متسولين على الأبواب يسألون الرضاء أو يستجدون منصبا أو يتشممون أرجل كرسي فعل الكلاب التي لاصاحب لها .

وان شئت ياإبنتي فاعجبي من قوم أكرمهم قومهم وجعلوا لهم في المجتمع المصرى وزنا ولكنهم يخونون قومهم ومصرهم ويتسقطون على بلاد تقف منا موقف العداء والتهجم والاستفزاز في صغار مضحك وفي طفولة تدعو إلى السخرية والهزء يتمتعون بها في كل أنحاء العالم المتحضر وغير المتحضر على السواء . الا يثير عجبك ياإبنتي أن يقصد إلى هؤلاء من تكرمهم بلادهم ليكونوا هناك يدا تتسول ولتكون البضاعة التي يبيعونها كرامة مصر وكرامة الشعب المصرى .

ألم تتعجبي ياإبنتي من أقوام يظلون يطوفون ببلاد العالم ليزدادوا على الغنى مالا هم عنه غناء . ولكن رخصت عليهم كرامتهم وهانت عليهم نفوسهم ومادامت نفوسهم قد هانت عليهم فلا شك أن مصر التي هم ينتسبون إليها شاءوا أم أبوا أكثر عليهم هوانا .

أو لم تعجبي ياإبنتي من قوم نالوا المناصب وشاركوا في المصائب التي تواجه مصر اليوم وفي الكوارث التي تحيط بشوارعها ومبانيها وتليفوناتها وكهربائها وأبعدوا عن مناصبهم فإذا السعار يتغشاهم وإذا هم ينقلبون صراخا لاينقطع وحين كان الواحد منهم ملتى على كرسيه السلطاني كالشيء لايستطيع أن يهمس بمعارضة ولايجرؤ أن يحادث نفسه بكلمة واحدة من جملة تدل على أنه لايوافق ولكن اليوم وفي ظل الحرية ينطلق هجومه ويعلو صوته وكأنه البطل المغوار أو الأسد الرئبال ، وبماذا يطالب .. يطالب بالحرية ناسيا أنه حين يطالب بها على الملأ يعلن بما لايدع مجالا للشك أنه في ظلها يعيش وفي أجوائها يتنفس بل ويصيح أيضا .

وإن شئت يا إبنتي فاعجبي من قوم يقوم قائمهم على إذلال الإنسان وقتل الشعوب وسفك دمائها والتسلط عليها قهرا السلاح والفتك والجبروت ولا عليك يا إبنتي أن تفكري من هم فما يكلفك الأمر إلا نظرة إلى أفغانستان وبولندا اليوم أو نظرة أخرى إلى ما فعلوا فى المجر وفى تشيكوسلوفاكيا وفى غيرها .

أعجبي لهؤلاء القوم يساندون شيعتهم فى مصر ويظاهرونهم بكل وسائل المساندة والمظاهرة ولن أفعل .. ويصبح شيعتهم مطالبين بالديمقراطية والديمقراطية كما تعلمين هي حكم الشعب للشعب لمصلحة الشعب . فهم إذن يطالبون بحكم الشعب بالشعب .. وهم الذين يقتلون الشعوب لتقبل حكمهم وهم الذين يختطفون الأطفال اليوم فى أفغانستان ليلقنوهم إلحادهم . وقد سمعنا عن عصابات تختطف أطفالا ولكنك ما أظنك يا إبنتي سمعت عن دولة تختطف أطفالا . شيعة هذه الدولة وأنصارها يطالبون بالديمقراطية وبالحرية ولا يجدون من يقول لهم أنهم حين يطالبون بالديموقراطية والحرية ويعلنون هذه المطالبة يؤكدون دون أن يشعروا أنهم يعيشون الديموقراطية أو ما يشبهها على الأقل ويعيشون الحرية أكمل ما تكون الحرية لأن البلاد الدكتاتورية لاتسمح طبعا لأحد أن ينادى فيها بالديمقراطية ، وويل كل الويل لمن يطالب فيها بالحرية . وقد عشنا يا إبنتي أياما سوداء لا تذكرينها أنت كانت الحرية فيها قتيلا لا يجرؤ أحد أن يذكر مقتلته . وكانت لا إله إلا الله لا تقال إلا خفية وكأنها جريمة .

وبعد يا إبنتي فما أقل هذا الذى ذكرت مما يستحق تعجبك .. أما أنا يا إبنتي فكما قلت لك فقد فقدت نعمة التعجب لا أفقدك الله إياها فإن تعجبك أنت وأبناء جيلك أملنا فى الغد ونظرتنا المضيئة إلى المستقبل .

تتغير الدنيا ولا تتغير

ما أكثر ما نقرأ .... وكم تخدعنا الكلمات المطبوعة فتجعلنا نقرأ ما كان يحسن بنا ألا نقرأه .. وقد ازداد الهزال وندر الكريم . واختلطت معانى الحياة فأصبحت الثقافة هى رقص العاريات والعلم هو دعاية الفارغين . وساد تجار الشرف وتوارى ذو الخلق الرفيع يدارى شرفه وسمو نفسه وكأنه بهما من ذوى العاهات .

عصر بخيس مهين هو نتاج فترة رشا فيها القائمون على الأمر الجماعات كجماعات لا أفراداً أو وحداناً .

فسولوا للعاملين أن يأخذوا ولايعطوا . ورتبوا لهم حقوقاً ولم يرتبوا عليهم واجبات واتماع ميزان الحياة . فإذا العامل فى المصنع لايعمل إلا أن يلهو واثقاً أن العلاوة ستوافيه وأن العقاب عنه قصى بعيد وتتخرب مصر ويهبط الإنتاج فيها وتلجأ الدولة إلى الضمير فلا تجده أو إلى الأمانة فتفتقدها لتفقدها ويعلو الضجيج مع ضجيج الآلات التى لاتجد من يديرها .

ويزيد عدد المدافعين عن عدد اللائمين فى زمن الخلق الخراب والشرف المضاع .. والضمير القتيل وبيد أصحابه كان القتل .

ويرشو عهد تلك الفترة التلاميذ فيقدم لهم التعليم المجانى بغير قيد ولاشرط وتنفق الدولة من دماء أبنائها الشرفاء ويأبى التلاميذ أن يبذلوا بعض الجهد ليردُّوا فضل الدولة ويرسب الطالب عاماً وعامين وثلاثة ولايجد رادعاً ولا عقوبة فما له إذن لايلهو ويلعب ماشاء . وماله لاينصرف

عن المذاكرة ماحلا له المنصرف مادام واثقاً أنه فى عامه القادم تلميذ ويمجانية كاملة أيضا .

وحين يصبح شريف أوقفوا هذا العبث تتعالى الصيحات فى وجهه أن التعليم مجانى وسيظل مجانياً . حتى للطلبة العابثين الماجنين اللاهين اللاعبين .. نعم حتى لهم .

فإذا قال عقلاء ليكن التعليم مجانياً للجاد من الطلبة وليس للماجن ارتفعت لافتة الفساد صائحة بل للجميع ، وحين يقول قائل أليس هناك فى مقابل كل حق واجب . يلفظون بما لاتفهم ويهلوسون بما لايعقل . ونصر نحن على القول أن المجانية للشعب أن يتعلم على شرط واحد هو أن يكون راغباً فى التعليم لا راغباً عنه فإذا رسب الطالب مرة حرم من المجانية ولكن هل من مجيب .

إن الزمان زمان لهو ومجون . ونرى الفن فى زماننا هذا فنجد الأشعار بلا موسيقى ونرى الموسيقى بلا طرب ونرى الرسوم بلا معنى ونرى الكلام وقد فقد مقوماته وأسسه فلا الرواية رواية ولا القصة قصة ولا التمثيلية تمثيلية ولا المسرحية مسرحية .

ويدخل إلى الميدان من لايدرى عن أسسه شيئاً ويسقط الذوق العام فنرى التمثيلية فإذا هى مقالة ، ونرى المقالة فإذا هى عي وبلاهة ونرى القصة فإذا هى حدوتة ونرى الرواية فإذا هى ظلام وقتامة وانحطاط وتنشأ طبقة من المغنين تضج ولا تطرب وتصوت ولا تقول . ونسمع الأصوات فإذا الحرف لا يكتمل كلمة والكلمة لاتكتمل جملة والجملة لاتعطى معنى ويعم الخراب فإن فن الحياة الخراب لابد أن يكون خرابا .

وتصبح البلد الوحيد فى العالم الذى ينال الإنسان فيه حقوقاً ولا يتحمل واجبات فيسقط معنى الحياة ويسقط معها فنها .

وترى الرشوة وهى عماد الإقتصاد ونرى صاحب القلم وهو يبيع قلمه وهو يعلم أن من يبيع قلمه فقد باع شرفه ونرى كتابا يتاجرون بالوطنية على شعبهم ويزايدون بادعاء البطولة على قومهم وهم يدرون أنهم لصوص يسرقون ثقة القراء بهم وربما لايدرون أنهم بما يفعلون شر من اللص الذى قد يسرق مالا محدود القيمة بينما ثقة الشعب لايساويها مال فى العالم

واقرأ بين خرف المخرفين أنه لابأس أن تتغير بعض القيم . شاه من قائل وشاه قوله . كيف تتغير القيم .. هيهات . فإن القيم أصبحت قيماً لأنها ثابتة لا تتغير .

فالقاتل منذ قتل قابيل هابيل قاتل . واللص سارق مرفوض من كل خلق ومن كل دين والمرتشى ساقط الكرامة آكل للسحت ملعون بنص كتابنا ، والسحت هو الرشوة وهو ملعون من الله والناس ، وملعون قبل الأديان . والخائن خائن وتاجر العرض فى الحضيض الأسفل من المجتمع وفى الدرك الأسفل من النار . والمنافق إنسان رخيص باع انسانيته باختياره فصار شراً من الحيوان .

والشريف يظل شريفاً والنبيل من الخلق يظل نبيلا ويظل السامق سامقا .

ومرفوض قول القائل نترك الماضى ، فإن فترة الطغيان هى التى حطمت هذه القيم وقد نصلح ما خرب ودمر من وسائل الحياة ولكن هيهات أن نقيم ما تفسخ من قيمنا واضمحل إلا إذا أدركنا إدراك يقين لاشك فيه أن

القيم ثابته وأنه لايجوز لها ولا يعقل أحد أن يتغير منها شيء ، ولابد أن نعرف المائل حتى نقيم مائله وأن نستوثق من المعوج حتى نقوم عوجه .

ولا يقولن قائل أن كل ماض فات ، فلا هو من الماضي ولا هو قد فات فوسوليني مازال يلقى بظله على إيطاليا حتى اليوم وهتلر مازال تخريبه لألمانيا ماثلا فى تقسيمه لشعبها إلى دولتين تشقى كل منهما بما جلبه عليهما . وشاه إيران هو مصدر ما تلاقيه إيران من دمار .

وقد سبقينا بفاروق ولا نستطيع أن نقول عنه أنه ماض ولا من جاء بعده يعتبر ماضيا .

فالتاريخ حلقات مترابطة متصلة لاتنفصل حلقة منه عن حلقة .

والذى نشهده اليوم من فساد ضمائر وفساد ذمم وانحطاط بشرى هو بعض آثار الأيام القريبة التى رانت علينا بالطغيان .

والرئيس الحالى من أشرف من عرفت خلقاً ومقصداً وهو بهذا الشرف فى الخلق والمقصد يريد أن يعيد إلى مصر وجهها المشرف النبيل . ومن كان مثله شريفاً يكون ضيقه بالانحطاط مضاعفاً ألف ضعف . وهو يعلم علم يقين أنه لابد أن تعود مصر القيم التى نشأ فى ظلها وهو يعلم علم اليقين أن القيم ثابتة ثبوت الأزل — قط لم تتغير وأبداً لن تتغير .

وأنه قد تتغير العوائد والتقاليد والمظاهر أما القيم فهى أشد ثبوتاً من أعتى الجبال تتغير الدنيا ولا تتغير .

وأن خالها تخفى

وقف القلم طويلا قبل أن أبدأ هذا المقال ، فأنا أبحث عن تعريف يحدد الزمان الذى أريد أن اروى منه هذه القصة إليك فهو فى زمان كان فيه الآدميون سلعة تباع وتشترى وكانت السلعة تسمى العبيد فماذا ترانى أقول لأمير هذا الزمان عن غيره ، هل يصلح لى أن أقول زمن العبيد والسادة هيهات فإن هذا التعريف يجعل الزمان يختلط بكل الأزمنة ويقع القارىء فى متاهة من التاريخ ولايستطيع أن يتعرف على الزمان الذى أقصد إليه .

فكل الأزمنة كان فيها عبيداً وكان فيها عبودية ، وإن كان العبيد فى الزمان الماضى يباعون ويشترون بالمال الصريح فكم شهدنا من عهود كان الإنسان فيها يباع بالوظيفة أو بالجنس أو بالمال وإن كان الزمان الماضى يقر البيع بين المتعاقدين بإيجاب من البائع وقبول من المشترى ، فلكم شهدنا البائع هو البضاعة ذاتها فباع الناس أنفسهم للسلطان أو للشيطان أو للمرأة أو للرغبة أو لهوان نفس أو لضعة قصد أو لسقوط مروءة ، وكان بائعو أنفسهم ولا يزالون يجدون المشترى حاضراً من قريب .

وما أحسبك تلح علىّ أقدم إليك الأمثلة ، فالأمثلة تطالعك كل يوم فى كتاب يبيعون أنفسهم وأوطانهم إلى من يشترى فى سوق النخاسة الأدبية التى اتسع واستفحل أمره وأصبح المشترون فيها دولا يمثلها رؤساء مخاريق وجدوا من يقول لهم أن من يبيع نفسه يبيع وطنه فألقوا بأموال شعوبهم فى السوق واشتروا الأقلام ، وأصبحت سوق العبيد حقيقة قائمة

لا يحكمها قانون إلا الخيانة ولا تضبطها قاعدة إلا الوضاعة من بائع نفسه والمشترى جميعا .

وكان العبيد فى ظلمة الحياة يباعون ويشترون بقوانين معلنة وضوابط واضحة ، فهل تحضر الزمان أم تأخر ، وهل ارتفعت قيمة الإنسان أم تدهورت .

وبعد فما زلت حائراً كيف أبدأ رواية قصتى إليك ، فلأقل إذن فى ذلك الزمان الذى كانت فيه تجارة العبيد معلنة غير مستترة مشهورة غير مخبوءة كان هناك عبد يتوق إلى الحرية ، وكان يعرف أن سيده رجل صالح يقيم الصلاة ويأتى الزكاة ، وكان هذا السيد معجباً بخطيب يخطب الجمعة فكان حريصاً كل الحرص على أن يصلى كل أسبوع فى المسجد الذى يخطب فيه هذا الخطيب ، فقصد العبد إلى الخطيب يرجوه أن يجعل خطبة الجمعة عن وجوب إعتاق العبيد وأن يذكر الناس بقوله تعالى فى سورة البلد « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة » ووعد الخطيب أن يستجيب لرجاء العبد المشوق إلى الحرية .

وانتظر العبد ومرت الأسابيع والخطيب يخطب فى كل جمعة ولكنه لايفى بوعده ويعجب العبد ، فهو يعرف هذا الرجل ، ويعلم عنه أنه لايعد إلا أنجز فما ماله فى هذه المرة يخلف وعده وينكص عنه .

وفى أحد الجمع خطب الخطيب فإذا خطبته كلها عن كرامة الإنسان وعن كراهية الله للإستعباد وراح يقرأ بين المصلين كل ما جاء فى القرآن الكريم من حث للمؤمنين أن يعتقوا عبيدهم وأن يتقربوا إلى الذات العلية بفك الرقاب .

وفى نفس اليوم أطلق السيد العبد وفك عنه إسر العبودية ، وقصد العبد إلى الشيخ .

— شكرا الله لك أيها الرجل الصالح .

— إنما أديت واجبي يابني .

— وأوفيت بعهدك أيضا ..

— إن العهد كان مسئولا يابني .

— ولكنك يامولاى تراخيت فى إنجاز وعدك وماعهدتك كذلك .

— يعلم الله وحده سبب هذا التراخي .

— ألا يجوز لى أن أعلمه أنا أيضا .

— لا بأس يابني . أنك حين طلبت إلىّ ذلك لم أكن أملك شيئاً من المال فانتظرت حتى جمعت من المال ما يكفى لشراء عبد فاشتريته ثم أطلقته وحين فعلت وجدت من حقى أن أعظ الناس بفك رقاب الناس ، لأن الواعظ لايسمع قوله إذا لم يعط المثل من نفسه ولو كنت ألقيت خطبتى هذه دون أن أصنع ما صنعت ما استجاب لى سيدك السابق ولا استجاب لى غيره ، فالكلمة تحمل قيمتها إذا صدرت عن شخص يعمل بها قبل الآخرين ويجعل من نفسه المثل الذى به يتأسى السامعون ، وحينئذ .. وحينئذ فقط تقع الكلمة فى موقعها وتبلغ من السامع حيث يريد لها أن تبلغ .

وكانت الحجة قاطعة وكرر الحر الشكر وانصرف عن الخطيب هائثاً سعيداً .

وأنا اليوم أذكر هذه القصة وقد طالعتها منذ قريب فى أحد الكتب لأنعم النظر فى مضطرب الحياة ، فأجد الداعين إلى الشرف هم أكثر الناس فجوراً ، والمتشدقين بالأمانة هم أعظم الناس خيانه ، والمتربعين على دست النصيحة هم أكثر الناس حاجة للنصيحة فلا عجب إذن أن يذهب

كلامهم هباء من الهباء ، وكيف يسوغ عند الناس أن يروا المتحدث عن التقشف هو أكثر الناس ثراء .. جمع أمواله من الدول التي استأجرته ليهاجم مصر وحكام مصر حتى إذا نال من المال ما يكفي احفاد أحفاد أحفاده قدم إلى مصر يصيح في الناس أن اكتفوا بالقليل واقفلوا الإنفتاح وعودوا إلى الإنغلاق .

وكيف يسوغ عند الناس أن يروا المسئول يخطب في كل يوم عن الأمانة والشرف والإستقامة وهم يعلمون عنه أنه لص خائن للأمانة مضيع للشرف لا استقامة له إلا إذا قصد إلى السرقة والإغتصاب والنهب فإنه حينئذ يعرف الطريق إليها حق المعرفة .

وكيف يسوغ عند الناس أن يتكلم قوم عن حق الله وهم ملحدون لا يعترفون بالله ولا بالأديان ولا بالروح فالعالم كله مادة والمادة هي أصل الكون .

وكيف يسوغ عند الناس أن يدعى قوم الجرأة والبطولة اليوم والحرية متاحة والدار أمان والحكم شعاره القانون وقد رأيناهم يعفرون رؤوسهم على أعتاب الطغيان ويمتدحون بالظلم ويشيدون بالجبروت ثم هم اليوم يهاجمون الحرية وينتهزون منها فرصة ليظهروا أنفسهم في صورة الأبطال ويبيعون هجومهم إلى الجرائد التي تطبع خارج مصر والتي تريد أن يزداد توزيعها بالهجوم على كبرى الدول العربية ..

وما زيادة التوزيع لشراء من الجمهور وإنما لشراء من الدول

إن جميع هؤلاء وأمثالهم يحسبون أنهم قادرون أن يخفوا حقائقهم على الشعب وليس يعنيهم قول زهير بن أبي سلمى .

ومهما تكن عند امرىء خليقه   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

إسلام وشيوعية : لا يلتقيان

إقرأ بإعجاب الفصول التي ينشرها الكاتب الكبير الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى بجريدة الأهرام بعنوان ، على إمام المتقين . وقد ظللت على إعجابي بها حتى جاءنى هنا فى لوزان أهرام الأربعاء ٧ سبتمبر المنشور به الفصل الثامن من البحث وجدت المقال يتعارض بعض منه مع الجزء الأكبر من آخره وعبد الرحمن الشرقاوى من الكتاب الذين أكن لهم كل تقدير وإكبار وتجمعنى وإياه – والحمد لله – صلة من أقوى صلات الصداقة وأعمقها ومن حق هذه الصداقه على أن يكون الحق هو عمادها لا المجاملة فإن الصداقه من مادة الصدق والذى لايصدق صديقه عدو وحق الله أولى الحقوق بالرعاية لا يسبقه حق فى الوجود .

يقول الأستاذ عبد الرحمن فى منتصف المقال تقريباً . وقال على أنه لابأس بالغنى والتمتع بزينه الحياة التى أخرج لعباده والصيبات من الرزق التى أحلها الله لابأس بهذا كله . ومن حرم ما أحل الله فهو إثم كمن أحل ما حرمه الله ولكن هذا المال يجب لكي يكون حلالا أن يتوافر له أول الأمر أن يكسبه صاحبه بعمله وبلائه وجهده لا أن يكون منحة من ولى الأمر لقرابه أو مودة أو نحو ذلك أن القرآن الكريم يفسر بعضه البعض وحين قال تعالى . والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق قال فى الوقت نفسه . وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة وقال « وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وإذن فحق الملك قائم فى أصله على العمل على

مايكسبه الإنسان بعمله ومن هنا يحفظه الله تعالى فيحميه من السرقة ويكفل الميراث .

إلى هنا ينتهى كلام الأستاذ الشرقاوى الذى لا أخالفه فى مضمونه وإن كنت أتشكك فى تفسير الآية الكريمة . وفضل الله المجاهدين . إلى آخر الآية فما أحسب أن التفاسير ذهبت إلى أن هذا التفضيل يكون فى الرزق فى الحياة الدنيا وإنما هى الدرجات التى أعدها سبحانه فى الباقية الخالدة وكذلك أخالفه فى تفسير الآية أن ليس للإنسان إلا ما سعى إلى آخر الآية . واعتقد اعتقاداً راسخاً أن المقصود من الآية أن ليس للإنسان إلى ما سعى فلا ينال عند الله أجر فضل لم يقم به تمشياً مع قوله تعالى « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » وقوله « يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم » ومع كثير جداً من الآيات التى تقرر أن الإنسان مسئول عن عمله أيا ما كان الأمر فهذا هو الجزء الذى لايمكن أن يختلف فيه مسلم مع الأستاذ الشرقاوى وهو بهذا الجزء يقرر أن التملك حلال مادام ليس منحه من ولى الأمر وأن الله يحمى هذا التملك وينظم توريثه .

ولكن قليلا ما نمضى فى المقال فإذا نحن نجد المالكين جميعاً مصيرهم جهنم والنار والكى بالذهب والفضة وإليك ما يقول الأستاذ الشرقاوى وأن علياً ليذكر عثمان بأيام عمر وبما اتفقوا عليه جميعاً بأن يعيد عمر توزيع الثروة حين راعهم إنتشار الفقر على الرغم من تكدس ثروات الناس » مانسى أحد بعد من الصحابه واقتناع عمر وعثمان يقول على أنه ما من أحد يخزن فوق حاجته إلا حرم آخرين من ذوى الحاجة وأن علياً ليذكر عثمان بعهد عمر والله لئن بقيت إلى الحول لا لحق أسفل الناس بأعلاهم لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول الأغنياء فرددتها على الفقراء .

وإنى أسأل الأستاذ عبد الرحمن أى المال هذا الذى يريد أن يتصرف به عمر هذا التصرف إن كان مال الجماعة فهذا حقه إما أن كان مال الأفراد فهيهات أن يقول عمر هذا القول أو يقوله على وإلا لما احتاج ماركس أن ينشىء نظريته الشيوعية واكتفى برأى عمر هذا وعلى وإن كان هذا رأى عمر وقد صحب النبى عليه الصلاة والسلام قرابة عشرين عاماً وكان مع أبى بكر فى عامى خلافته ثم كان هو أمير مؤمنين لمدة تسع سنوات فما له إذن لم يشر بهذا الرأى وهو يشير وما له لم ينفذه وهو أمير المؤمنين » .

وكيف يقصد عمر مال الناس بهذا الرأى كما يوحى بذلك أخى الأستاذ الشرقاوى وهو من شهد خطبة الوداع والنبى ﷺ يقول « إن دماءكم وأموالكم حرام بينكم » وكيف يلقى عمر ربه وما عرف التاريخ بعد النبى خائفاً من ربه كما كان يخاف عمر والله سبحانه هو القائل « أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا » وماذا هو قائل فى الآيات تترى جميعاً بمعنى « يبسط الله الرزق لمن يشاء ويقدر » أى يجعله مقدوراً قليلا .

ويوغل الأستاذ عبد الرحمن حين يقترب من النهاية فى هذا الفصل فيذكر ما يلغى به كل ما جاء من قبل فى هذه الحلقة من شرعية التملك والميراث يقول على لسان على فيما أظن ثم أن الاقتناء مباح وهو غير مذموم إن لم تكن هناك حاجات تسد أما إن كانت هناك حاجة لأحد فما يحق لمسلم أن يقتنى فوق حاجته ولو ديناراً ولقد مات رجل فى زمن الرسول حيث كان فى الأمة كثيرون من أصحاب الحاجات والجياع فوجد فى مئزر الرجل ديناراً فقال رسول الله عنه أنه كانز وسيكوى بهذا

الديناركية واحدة ووجد فى مئزر آخر دينارين فقال ﷺ هما كيتان .

وذكر قبل ذلك حديثاً للنبي على رواية على ايضاً من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها وكان يعنى من كنز وترك مالا وفى الأمة أصحاب حاجة مسلمين كانوا أم ذميين .

ويذكر قبل ذلك أن النبى سئل « أى مال نتخذ يارسول الله قال لسانا ذاكراً وقلباً خاشعاً وزوجة تعين أحدكم على دينه » .

وإلى هنا وتقف ماهذا ياأخانا هل ألغى النبى عليه الصلاة والسلام الميراث دون أن ندرى ودون أن يتنبه إلى ذلك كل المسلمين حتى الأئمة الذين ألفت عنهم كتاباً من أحسن كتبك وفيم أتعب إذن ماركس نفسه وما كان عليه إلا أن يعلن إسلامه ويرفع هذه الأحاديث شعاراً دون أن يقتل ما قتل من مئات الملايين فى سبيل مذهبه .

إذن ياأستاذ عبد الرحمن فآيات المواريث جميعها المقصود بها أن تقسم بين الورثة لساناً ذاكر وقلباً خاشعاً وزوجه تعين أحدنا على دينه وكيف يقسم هؤلاء وبعد هذا فمن ترك صفراء أو بيضاء كوى بها فإن كان فدانا قوم بمائة دينار ذهباً أيكوى به وكانز الدينار له كية وكانز الدينارين له كيتان فما هو مصير عبد الرحمن بن عوف الذى ترك جبالا من الذهب قطعت بالفؤوس ووزعت على أبنائه وهم أحد عشر إبناً فأصبح كل منهم أغنى أغنياء العرب وقد بشر النبى عليه الصلاة والسلام عبد الرحمن بن عوف بالجنة والنبى كما جاء فى القرآن ليس إلا بشراً رسولا فهو لم يبشر ابن عوف إلا بما أوحى به الله والله كان يعلم اللحظة التى سيموت فيها عبد الرحمن ويعلم أنه سيترك هذا الذهب وبشره بالجنة أفيكوى

عبد الرحمن ابن عوف بكل هذا ؟ فما الجنة إذن ؟ أنه لن يراها ولن يعرفها .

إذن فلا ميراث أو يكون المسلمون جميعاً والذميون أيضا فى اكتفاء وفى غير حاجة إذن يعطى الإنسان كل ماله للدولة ويترك أبناءه جياعاً يتكففون الناس وكان بيده أن يحمى ماء وجوههم فى أى شرع هذا وفى أى دين وفى أى مله ولماذا إذن رفض ماركس الأديان وسماها أفيون الشعوب وما أحسب أنه فعل ذلك إلا ناظراً أكبر النظر إلى الدين الإسلامى فهو أعظم الأديان عناية بالميراث وبحق الإنسان فى ماله .

وفى أى عصر وفى أى زمن اكتفى الناس جميعاً وفى أى دوله ما أحسب أن هذا حدث قط وما أحسب أنه سيحدث أبداً إذن فلا ميراث إلا أن يكون الميراث لساناً ذاكراً وقلباً خاشعاً وزوجة تعين أحدنا على دينه ومع ذلك فأنت تعلم أن فاطمة البتول إبنة سيدنا النبى طالبت أبا بكر بقطعة أرض كان النبى قد أمر لها بريعها وهى زوجة على وبنت خير المرسلين .

أكانت الأمة فى ذلك الحين جميعها مكتفيه ولم يكن مسلم ولا ذمى فيها محتاجا .

بعض هذا ياخى بعض هذا فأننى والله أعرف عنك أنك مسلم صادق الإسلام وأنت تحاول بإخلاص أن تقرب المذهب الشيوعى إلى الإسلام هيهات ياصاحبى لا يلتقيان وأن إمام المتقين لو شهد ما تقوله على لسانه اليوم لسألك فى بساطه ويسر ولماذا لم أصنع أنا هذا حين وليت الخلافه . أما كان أيسر عليه أن يلغى الميراث بموجب هذه الأحاديث النبوية ولا يكلفك مشقه هذا الاجتهاد .

وبعد فقد رجعت إلى تفسير الكشاف للزمخشرى لأستبين الرأى فى الآية الكريمة ، والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون .

فوجدت الأستاذ عبد الرحمن نقل عن الزمخشرى ولكنه نقل ما يؤيد رأيه وألغى تماماً ما ينسف رأيه نسفاً كاملا ولا أكتمك لقد عجبت ولهذا فإننى سانقل إليك مادة الزمخشرى كامله وأن فيها غناء كل الغناء عن أى رأى يقول الزمخشرى فى تفسير هذه الآية الكريمة .

قيل نسخت الزكاة آية الكنز وقيل هى ثابتة وإنما عنى بترك الإنفاق فى سبيل الله منع الزكاة وعن النبى ﷺ ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان باطناً وما بلغ أن يزكى ولم يزك فهو كنز وإن كان ظاهراً وعن ابن عمر رضى الله عنه كل ما أديت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أراضين وما لم يؤد زكاته فهو الذى ذكر الله تعالى وإن كان على ظهر الأرض فإن قلت ما تصنع بما روى سالم بن الجعد أنها لما نزلت قال رسول الله (ﷺ) تباً للذهب تباً للفضة قالها ثلاثاً فقالوا أى مال نتخذ قال لساناً ذاكراً وقلباً خاشعاً وزوجة تعين أحدكم على دينه وبقوله عليه الصلاة والسلام من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها وتوفى رجل فوجد فى مئزره دينار فقال رسول الله (ﷺ) كية وتوفى آخر فوجد فى مئزره ديناران فقال كيتان قلت كان هذا قبل أن تفرض الزكاة فأما بعد فرض الزكاة فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالا من حيث إذن له فيه ويؤدى عليه ما أوجب عليه فيه ثم يعاقبه ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله (وكلاهما من المبشرين بالجنة) وعبيد الله رضى الله عنهم يقتنون الأموال

ويتصرفون فيها وما عبهم أحد ممن أعرض القنية لأن الإعراض اختيار للأفضل وإلا دخل فى الورع والزهد عن الدنيا والإقتناء مباح موسع لا يذم صاحبه ولكل حد وماروى عن على أربعة آلاف فما دونه نفقة فما زاد فهو كنز كلام فى الأفضل .

وإلى هنا ينتهى كلام الزمخشرى وبهذا يستقيم فى العقل كل الذى استشهد به الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى ولو أنه نقل الرأى جميعاً دون أن يحجب أهم ما فيه وهو ما يصل بين هذا الرأى وبين الدين جميعاً لما استولت الدهشة على أذهان الناس فإن رأى الأستاذ الشرقاوى يجعل كل صاحب دينار كافراً ورأى الزمخشرى الذى نقل عنه الأستاذ الشرقاوى أن كل اكتناز مهما بلغ حلال مادامت الزكاة قد أديت عنه وهو الفرق نفسه بين الإسلام والشيوعية فالطريقان شتى متباعدان متنافران لا يلتقيان أبد الدهر .

وبعد ياأخى الأعز فأنا أعرف قوة إيمانك وأنك مستمسك بدينك فبربك ياأخى الأعز ألا أعدت النظر فى رأيك الآخر فهيهات لرأيك هذا أن يستقر أمناً أو قلقاً فى نفس مسلم أبداً وفقك الله .

تعقيب على رد

توقعت أن يرد الأستاذ الأخ عبد الرحمن الشرقاوى على المقال الذى نشرته الأسبوع الماضى معلقاً على أحد فصوله ، عن على إمام المتقين ، وتوقعت أيضا أن يكون رده بهذا الأدب الرفيع وهذا الخلق الأسمىالذى له أعرف ه .غير.

وبقى أن أعقب على رده وأبدأ بأنى ما إلى السخرية قصدت وحاشاى أن أفعل وإنما هدفت إلى أن أبين انتقاء ما استشهد به مع ما أنزله الله على رسول فيما يتصل بالمال بعد الأحاديث التى ساقها الأستاذ عبد الرحمن مؤيداً بها وجهة نظره وما أحسب الأستاذ الشرقاوى ألا يعلم أنى حريص على العدل الاجتماعى حين يتمثل فى أن تضيق الفوارق بين الطبقات وفى أن يتصدق الغنى على الفقير بوازع من نفسه وأرفض فى الوقت ذاته أن تستولى الدولة على كل مال يغل ريعاً للناس فيتأدى بنا الأمر إلى ما تتأدى إليه فى البلاد الشيوعية وفارق كبير بين أن تندب الناس للصدقة وتحثهم عليها ليقدموها بمحض اختيارهم وبين أن تفرض عليهم الفقر فينكشف غبار المعركة عن مجتمع كله فقير معدم بدلا من مجتمع يسوده المرحمة والتواد والتعاطف والحب فإن الناس إذا أصبحوا جميعاً فقراء سادت بينهم شريعة الغاب التى نراها سائدة فى البلاد الشيوعية .

وأنا أيها الصديق الأعز والذى سيظل دائماً صديقى الأعز معجباً بنظام الضرائب التصاعدية وأحبذها وأراها من أصلح الأنظمة الاقتصادية لمواجهة عصرنا هذا فلا خلاف بيننا فى هذا الشأن .

أما الآيات التى استشهدت بها فهى هى ما قصدت أنا إليه ولا أتصور الحياة بغيرها وهل يمكن أن يدعو الرحمن لغير هذا وكيف نتوهم أن يوصى

الله عباده بوصاة خيراً من أن يكون فى أموال الأغنياء حق معلوم للسائل والمحروم وهو الذى بسط الرزق لهم وقدره على غيرهم .

وما استشهدت به من أحاديث أيضا لا خلاف عليه وهل يمكن أن يكون هناك خلاف بينى وأنا من تعرف من دخائله مالعله يجهله عن نفسه – وبينك فى أنه لايجوز أن يبيت إنسان على شبع وهو يعلم أن جاره جائع أما ما سقته عن رأى عثمان من أن الزكاة تكفى فإننى أرى أنها من ناحية الوجوب كافية ولكنها من الناحية الإنسانية أقل من الكفاية وما أحسب أن هناك خلافا على هذا .

أما أن الحاجة فينبغى ألا تزيد عما يكفى الأهل والأولاد فى حياة عائلهم فقط فهنا اختلف معك خلافا لا محيد عنه فإنه إذا استقر الأمر على ذلك انتفى الميراث وعدنا إلى التناقض مرة أخرى فإنه إذا صح أنه لاينبغى للإنسان أن يدخر لأبنائه ما يقيهم شر الحاجة من بعده ويجعلهم فى غنى عن الإستجداء ينتفى الميراث إنتفاء تاما وأنت ياسيدى تقول فى صدر مقالك أنا لاخلاف حول الميراث فكيف يكون هذا إذا كنت لن أبقى لهم من باقية إلا ما أنفقه عليهم فى حياتى وماذا سيرثون إذن .

أما استشهادك بأبى بكر فاستشهاد بشخصية من قمم التاريخ والإنسانية وما أظن أن مثله يمكن أن يكون كسائر البشر وأن ما صنعه خاص به وحده وهو صديق النبى وصفيه وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، أما ياسيدى ما ذكرته عن بكاء عبد الرحمن ابن عوف حين اقترب الموت فاسمح لى أن أعجب منه فقد كان يستطيع بكل بساطة أن يمنح ماله كله لبيت المال ويكف عن البكاء أما أن يبكى ويبقى على ماله لأبنائه فتصرف يدعو إلى الدهشة .

أما ما ذكرته عن مجتمع التراحم فإنى واثق أنك لايمكن أن تتصوره

بقهر الناس وإرغامهم على مالم يشرعه الله وإن كان هذا رأى بعض الفقهاء فلاشك أن هناك آراء أخرى أكثر قوة تجعل الصدقة بعد الزكاة مندوبة مستحبة وليست حتمية مفروضة كما تريد أن تؤكد وأن ماسار عليه المسلمون لألف وأربعمائة عام لدليل على صدق ما أذهب إليه .

أما ما تقوله عن الدول الغنية والدول الفقيرة فإننى لا أتصور الحياة حياة شريفة إلا بما ترى أنت فى هذا المضمار .

وأما ماذكرته عن عمر بن عبد العزيز فهو دليل لى وليس علّى فقد أخذ عمر المال ممن كانوا قد انتهبوه ولم يكن لهم بحق ورده إلى أصحابه الشرعيين ورد إلى بيت المال مالم يجد له صاحباً على قيد الحياة وهذا أمر يتحتم على ولى الأمر وجوباً وليس مجرد حق له وإذا هو لم يفعله ونكص عنه وقع عليه التقصير .

وبعد ياأخى فإن ما ذكرته عن حسن ظنك بى هو وأكثر منه علمى بك ولولا خشيتى أن يقال أننا انتهزنا الفرصة لنتقارض الثناء لذكرت كل ما أكنه لك من حب وتقدير وإعجاب .

على أن رأيك هذا إذا أخذت به دولة إسلامية ما فإنها لن تطبقه إلا مرة واحدة فى عام واحد أما العام التالى فإنها بإذن واحد أحد لن تجد عند أى فرد من رعاياها ما يستحق أن يدفع عنه الزكاة وما دامت الزكاة قد سقطت فإن الصدقة أيضا تسقط من باب أولى وإنك ياأخى لو أعملت الرأى فيما تقول لوجدت أنك به لا تلغى الميراث وحده وإنما تلغى الزكاة أيضا وألا فعلى أى مال سيزكى المواطن فى عامه التالى مادام قد دفع بماله الفائض جميعا إلى الدولة فى عامه الفائت ، أنه سيكون مستحقاً لمال الزكاة ولن يجده أو لن يتصدق عليه وهيهات أن يعثر على متصدق أو صدقة .

أيها التاريخ توقب

سبحانه جل وعلا . له عند اليأس يد لطف ترد اليأس إلى أمل وتحيل ظلام القنوط إلى إشراقة فرجة . وهو سبحانه وتعالى من يقول : ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك . فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسرا فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب .

ويكرر سبحانه وتعالى إن مع العسر يسراً مرتين فى بلاغة معجزة لا يصل إليها إلا بارئ النفوس . العالم بمداخلها الخبيثة والخبير بأين تستقر الكلمة فى الضمائر وهو سبحانه حين يقول هذا لنبيه عليه الصلاة والسلام لا يقصر قوله عليه وحده وإنما هويخاطب الناس كافة والتاريخ بأسره .

فكل إنسان أنقض ظهره الوزر يضع الله عنه وزره . إيمان يملأ صدره بلطف الله العلى القدير ثم هو سبحانه يرفع له ذكره ويؤيده بالقول الثابت إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا . فامض فى غايتك أيها العبد المؤمن وارغب إلى ربك الذى وضع عنك وزرك ورفع لك ذكرك وهيأ لك بعد العسر يسرا لأن الله سبحانه يتبع عسر المؤمن بيسر من لدنه تقدست مشيئته .

وقد مرت مصر بعصر أى عسر وتعرض شبابنا لفترة من أحلك فترات التاريخ وقد استقبلوها فى مشارق أعمارهم وفى غضارة حياتهم والعهد أن منهم كانت لا تزال خضرا غضة . فوضعوا كل ثقتهم فى جماعة لا تستحق هذه الثقة ، وفجأة تفجرت الحقيقة على نفوسهم الشابة المفعمة بالأمل

المترعة بالوثوق فيمن أسلموهم قيادهم عن إقتناع وخبره . وقد كانوا قد ضربوا صفحا وأغلقوا أذنا عن كل ما كان يتناقله آباؤهم وإخوانهم الذين يكبرونهم عما يرتكبه العهد من آثام تبدأ بالإعتداء على الأعراض وتنتهي بالإعتداء على الحياة بإزهاقها . وكانو قد ضربوا صفحا وأغلقوا أذنا وعينا عن الرعب الذى تفشى وجه مصر جميعا مقتنعين فى حماسة الشباب أن كل هذا يهون فى سبيل مصر ، فقد كانوا يظنون أن ما كان العهد يقترفه كان من أجل مصر وليس من أجل الاستيلاء على مصر والإلقاء بها ورقة مراهنة لاصطياد الأمجاد الفردية وإقامة امبراطورية لشخص فى زمان اندثرت فيه الإمبراطوريات حتى اذا رأى الشباب مصر وقد صرعت كرامتها فى عام ٦٧ أفاقوا إلى صراح الحق . ورفضوا من بعد أن يضربوا صفحا أو يغلقوا أذنا أو يغضوا عينا وهالتهم — كان الله لهم — تلك الهوة السحيقة بين ما اقتنعوا به وبين ما طالعتهم به الحقيقة التى ترفض المناقشة وانماعت أمامهم وجوه الحياة وغامست فى أعينهم مسالك الطريق وراحوا ينعمون النظر فإذا دينهم قد ضاع فى غمرة الإلحاد . ووطنهم قد تلاشى فى تقديس الأفراد ، وقيمهم قد انهارت فى حماة الشمارات ، وإذا الفراغ يطل عليهم من وراء اللافتات وكفروا بما وقع عليهم من أقوال يردد أن الولاء سابق على الكفاءة ، والولاء هنا لغة كاذبة يعنى فى صريحها النفاق ، فمن شاء أن يصحح الكذب بالصدق فعليه أن يقول النفاق قبل الكفاءة أو الوطنية أو الإيمان بالله أو بالحرية أو بالكرامة الإنسان .

هكذا تصدعت قلوبنا نحن الآباء والأخوة الكبار على شباب هذا الجيل المصرى وحسبنا أنه تاه عن مصريته وضل السبيل عن ربه وفقد

الإنتماء لقيمه الأصيلة وما كان لا يعرف الإيمان بالله والحب للوطن أن يكون منتميا .

وازددنا جزعاً ونحن نرى الدين يصبح عند بعض منهم سلماً يصطنعونه إلى مغانم دنيوية وطريقا يزيفونه ليستولوا به على الحكم ، ورأينا فئات منهم تغلوا فى دينها غلواً ينأى بها عن الدين فى جوهره وروحه ويدنو بهم إلى مظهر لا يغنى إلا الفراغ من لحية تطلق أو جلباب أصبح كأستار مسرح للمضحكات التى لا جد فيها ولا عمق . ويزداد بنا الجزع ويبلغ أقصى مداه فى نفوسنا حين نرى فئة أخرى منهم يخدعها الشيوعيون عن أديانهم وعن عروبتهم ليقذفوا بهم إلى متاهات ماركس ولينين وإلى مذابح ستالين وماو .

ولكن الله سبحانه وتعالى يمد من فوق سبع سماوات يده باللطف الربانى فيرفع عنا وعنهم وزرنا ووزرهم الذي أنقض ظهورنا وظهورهم ويرفع بذكر مصر وذكرهم . ونلتفت فجأة فنجد مصر على حقيقتها تموج بالحياة فى نفوس الأصلاء من شبابنا . أولئك الذين لا تعرف الأرض مفرقهم إلا مصلين ، فهم شم الأنوف عامرة أفئدتهم بالإيمان برب العالمين مخضلة جنبات جوانحهم بحب مصرهم العالية فإذا هم يزحفون زرافات ووحداناً إلى قلعة صلاح الدين ومسجد محمد على ليعيدوا إليها وإليه رونق مصر وجلال الإيمان .

إن الشباب الذى عمل فى صمت ولكن فى عزم يعيد الزخرف إلى الآثار التى هدمت والمتاحف التى احترقت وإلى المساجد التى دمرت أن يعيد بشبابه الشباب إلى مصر ، وبجمال روحه الجمال إلى وجه مصر . وبعزمه الفتوة إلى عزمات مصر ، وبفنه الريادة إلى فن مصر . أراد الشباب وفعل .

إذن فذاك هو الشباب الذى أحزننا بعض منه بمظهره ، ها هو ذا يتكشف لنا عن أصوله ويزيح عن حقيقته الباذخه ما الصقة بها التافهون منهم والضائعون والمضيعون .

هذا الشباب الذى وقف الأيام الطوال والشهور المتلاحقة على الهواء ليزيح عن آثار مصر ما أفسدته أزمان مقيته ، أزاح فى ذات الوقت عن نفسه سوء الظن به الذى رماه عليه فئة منه قليلة قلة الاستثناء الذى يؤكد القاعدة والقاعدة هنا عملاقة تقف رؤوسها عالية مع المآذن التى عاد إليها الله أكبر ولا إله إلا الله . ومحمد رسول الله .

إن هذا الشباب هو مصر القادمة . فأصبح أيها التاريخ أن مصر المؤمنة بالله وبالشرف وبالحق والحرية قادمة إلينا فى الطريق وقد بدت منها الطلائع كإشراقة فجر فى يوم ربيع .

إن هذا الشباب الذى عرف الله والوطن والجمال لن يعرف الرشوة الكافرة ولا التجارة الشائنة ولا الخنوع القليل . أنه غد مصر أيها التاريخ ... فترقب .. أنه كلمة الله ووعده الحق ، إن بعد العسر يسرا . إن بعد العسر يسرا .. إن بعد العسر يسرا .. فاللهم شكراً لك على ما شرحت من صدرونا وما وضعت من أحمالنا . وما رفعت من ذكرنا واللهم غفرانك لنا حين تولانا اليأس فى عسرنا وحين نسينا إن بعد العسر يسرا .

الفهرس

رقم الايداع ٧٣٨٨
الترقيم الدولى ٤ - ٠٢١٧ - ٠٨ - ٩٧٧ ISBN

مطابع نهضة مصر

مطابع نهضة مصر